مكتبة

الشيخ كشك

بناء النفوس

المكتب المصرى الحديث

بناء النفوس

الناشر: المكتب المصري الحديث
٢ شارع شريف عمارة اللواء بالقاهرة تليفون ٧٥٤١٢٧
٧ شارع نوبار بالاسكندرية تليفون ٢٦٦٠٢

عبد الحميد كشك

بناء النفوس

المكتب المصري الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

« ونفس وماسواها . فألهمها فجورها وتقواها .
قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها »
(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . وأصلى وأسلم صلاة وتسليما يليقان بمقام أمير الأنبياء وإمام المرسلين . وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين ، وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمداً رسول الله : خاتم الأنبياء والمرسلين ، صل اللهم وسلم وبارك على هذا النبي الأمين . وعلى آله وصحابته الغر الميامين ، وارحم اللهم مشايخنا ووالدينا وأمواتنا وأموات المسلمين أجمعين .

اللهم إنا نستعينك ونستهديك ، ونستغفرك ونتوب إليك ، ونؤمن بك ونتوكل عليك ، ونثنى عليك الخير كله . . نشكرك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك . اللهم إياك نعبد . ولك نصلى ونسجد ، نسعى ونحفد نرجوا رحمتك ، ونخشى عذابك ، إن عذابك الجد بالكفار ملحق . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . أما بعد :

فإنى أهدى كتابى هذا (بناء النفوس وأثره فى التربية) إلى جماعة المؤمنين : إذ أنه يشتمل على الإيمان وعظيم أثره فى بناء النفوس ،

والإيمان : مصدر السكينة ، وهى الطاقة الربانية الدافعة إلى زيادة الإيمان .

أهديه إلى المؤمنين : أذكرهم فيه بنعمة الله ، المتمثلة فى قوله جل شأنه :

(هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم).

كما أهديه إلى كل نفس يحاول اليأس أن يأخذ طريقه إليها ، فتظلم الحياة أمامها ، وتضطرب فى خضم محيطها . . إذ أن اليأس مهلكة وتحطيم ، ولكنه لا يجتمع مع الإيمان فى قلب واحد ، وسرعان ما يتلاشى شبحه ، ويزول أمام قوة الإيمان ونور التوحيد ، متمثلا فى ذلك قول الله جل شأنه ، حكاية عن يعقوب عليه السلام : (يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) .

كما أهديه إلى الحائرين فى دياجير الحياة ، ولا يقضى على الحيرة فى النفس ، إلا أن تجد قدوة صالحة تحتذى خطاها ، وأسوة حسنة تنهج على منوالها ، متمثلا فى ذلك قول جل شأنه : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) .

وإنى لأسأل الله من خالص قلبى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم . . فما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله انقطع وانفصل .

والله المستعان ، وعليه التكلان .

المؤلف

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، جعل مع الصبر نصراً ، ومع الضيق فرجاً ، ومع كل شدة مخرجاً ، ومع العسر يسراً ، وجعل لكل بداية نهاية : فالليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر .

وأشهد أن لا إله إلا الله : من استعز به ألبسه ثوب العزة وأغناه عن الناس . . قيل لتقي الدين الحسن البصري رضي الله عنه : ما سر زهدك في الدنيا ؟ فقال أربعة أشياء : علمت بأن رزقي لا يأخذه غيري فاطمأن قلبي . وعلمت أن عملي لايقوم به غيري فاشتغلت به ، وعلمت أن الله مطلع علي فاستحييت أن يراني على معصية ، وعلمت أن الموت ينتظرني فأعددت الزاد للقاء الله ! .

يا أخا الإسلام :

سهرت أعين ونامت عيون   في شؤون تكون أولا تكون
إن رباً كفاك بالأمس ما كان ،   سيكفيك في غد ما يكون !

وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمداً رسول الله ، وقف مواقف الأبطال في ساعات الشدة . . فعندما صمتت الألسنة ، ونطقت

الأسنة . وخطبت السيوف على منابر الرقاب : وقف فى حومة الوغى ، يدفعه إيمانه ، وتحفزه عقيدته يقول : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

الحق أنت ، وأنت إشراق الهدى ... و لك الكتاب الخالد الصفحات
من يقصد الدنيا بغيرك يلقهـا ... تيها من الأهوال والظلمات !

صلى عليك الله يا علم الهدى ، ما هبت النسائم ، وما ناحت على الأيك الحمائم .

أما بعـد :

فقد ألقيت نظرة فى رحاب الكون ، وطاف الفكر بأرجـاء الحياة ، فوجدت هذه الدنيا مليئة بالزخارف البراقة التى تخدع النفوس ، ورأيت لماديات الحياة تأثيراً قد بلـغ مداه فى الأعماق ، فانصرفت بعض النفوس عن طريق الجادة ، وتنكبت نفوس أخرى الصراط السوى ، فاهتزت هذه واضطربت تلك . . ذلك لأن الدنيا إذا تملكت النفوس ، وتربعت على عرش القلوب ، حجبتها عن رؤية الحقيقة العليا ، فترى هذه النفوس حائرة : مرة تتخبط فى دياجير الظلام ، وتراها يائسة مرة أخرى . . فهى فى حالة السراء جاحدة ، وفى حالة الضراء يائسة ، وكلا الأمرين أحلاهما مر : (إن الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً) .

ثم استثنى الله جل شأنه من هذا النوع نوعاً جديراً بالسعادتين : الدنيوية والأخروية ، فقال فى شأنه . (إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين فى أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم * والذين يصدقون بيوم الدين * والذين هم من عذاب ربهم مشفقون * إن عذاب ربهم غير مأمون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت إيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم بشهاداتهم قائمون * والذين هم على صلاتهم يحافظون * أولئك فى جنات مكرمون) .

يا أخا الإسلام :

قد يكون بناء القصور وتشييد البروج وناطحات السحاب أمراً سهلا يرجع إلى المهارة فى فن المعمار ، ولكن : ما أصعب بناء النفوس : فإن بناءها سر من الأسرار الذى لا يقوى عليه إلا الذين صبروا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله . . إذ أن هذه رسالة الأنبياء وغاية المخلصين ، وتجارة مع الله لكل من دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين .

ولذلك فإن بناء النفوس وتشييدها على أساس الحق ، وتزكيتها بالصلاح والطهر ، مطلب عظيم ، وغاية عليا ، وهدف من أعز الأهداف . .

وقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى مسجد النبي صلوات الله وسلامه عليه يقول لبعض الصحابة : ليذكر لى كل منكم أعظم شيء يتمناه ، قال أحدهم : أتمنى أن يكون لى مثل أحد ذهباً أنفقه فى سبيل الله ، وقال آخر : أتمنى أن يكون لى ملء المدينة خيلا أغزو به فى سبيل الله ، وقال ثالث : أتمنى أن يكون لى ألف عبد أعتقهم ابتغاء مرضاة الله . . وأخذ كل منهم يذكر ما يتمنى ، وأمير المؤمنين يدير النقاش بينهم ، ثم توجهوا إليه قائلين : فماذا تتمنى أنت يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : أتمنى ملء هذا المسجد رجالا أمثال أبى بكر الصديق رضى الله عنه ! !

طيب الله ثراك يا عمر : فقد أصبت كبد الحقيقة ، وتمنيت المطلب الأعظم . فأمثال أبى بكر — من ذوى النفوس المطمئنة ، والأفئدة البصيرة — هم الذين يملأون الكون أمناً وسلاماً ، ورحمة ووئاماً ، وإعزازاً وإكراماً . . لأنها نفوس كان الحق هدفها ، والخير غايتها ، والقرآن إمامها والرسول أستاذها . . نفوس كان أساسها توحيد الله ، وسلوكها طاعة الله !

إنه اليقين إذا عمر القلوب ، والإخلاص إذا أضاء النفوس ! !

(ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكوراً) .

ما أعظم الإيمان فى بناء النفوس ، وما أجل رسالة التوحيد فى تقويمها : (ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها) .

فاللهم إنا نسألك العافية فى الدين والدنيا ، والعصمة من كل ذنب ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر .

عبد الحميـــد كشك

العقيدة وأثرها فى التربية

إذا بلغت النفس البشرية المؤمنة الذروة فى الاقتناع ، فإنها تصير أشد ثباتاً من الجبال الشم والرواسي الشامخات ، وإن أجل مثل يوضح لنا هذه القضية موقف الرسول صلوات الله وسلامه عليه يوم أحاطت به الأشرار تحاول أن تطفئ جذوة الإيمان . فماذا قال ؟ قال كلمته المشهورة التى طالما اهتزت لها أعواد المنابر ، ووصل رنينها إلى أعماق القلوب ، قال بلسان الحق . . « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه ! » .

صدقت يا سيدى يا رسول الله حين قلت ، وعدلت حين حكمت ، وصبرت حين ابتليت ، وشكرت عندما أعطيت ، وغفرت حينما ظلمت . . فعليك صلاة الله وسلامه ، يا من قلت : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » .

إن أثر العقيدة فى التربية بعيد المدى ، شديد القوى . . فالنفس صاحبة العقيدة : راسخة البنيان ، وطيدة الأركان ، لا تعبأ بكوارث الأيام وشدائد الحياة ، ولا تنوء تحت الهموم الثقال ، لأنها تحمل بين جنبيها عقيدة الحق : (إنا كل شيء خلقناه بقدر) ، ولأنها واثقة أن هذا الكون لا تهب فيه نسمة هواء ، ولا تطرف فيه عين ، ولا تحدث

فيه حدث – صغير أو كبير – إلا بإذن الله : (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ، سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) .

التربيـــة فى مكـــة

إن الناظر المتأمل فى الفترة التى قضاها الرسول صلى الله عليه وسلم فى مكة بعد البعثة – وهى ثلاثة عشر عاماً – يجد أنها قامت فى نهجها على أساسين أكيدين ، ومبدأين راسخين :

المبدأ الأول : العقيدة ، وتتركز فى الدعـــوة إلى الوحدانية والإيمان بالبعث .

المبدأ الثانى : يتمثل فى تزكية النفس وتطهيرها بالقيم الأخلاقية والمثل العليا ، وفى ذلك المبدأ يقول القرآن الكريم : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق . ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به

لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه . ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) .

مبـــدأ التوحيد

وفى مبدأ التوحيد : تتضافر آيات الكتاب العزيز بأدلتها الصريحه الحازمة ، القطعية الثبوت . وليس ثمة أدنى شك أن التوحيد دين الفطرة . . قال جل شأنه : « فطرة الله التى فطر الناس عليها » ، وخاطب القرآن ذوى الأفهام الباصرة فقال سبحانه : (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذن لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا ، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً) وقال تعالى ، وهو يخاطب ذوى العقول والبصائر : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون) .

ثم يؤكد هذا الجانب تأكيداً ينسجم تمام الانسجام مع ذوى الألباب فيقول سبحانه : (ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذن لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة ، فتعالى عما يشركون) .

فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه وقلت له : من خالقك ؟ لقال : أنا مخلوق للواحد الديان ! ! فما هذه المبدعات الإلهية ، والآحاد الكونية إلا كلمات ناطقات بلسان أقوى من لسان المقال ، بأن الله واحد لا شريك له : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ، ولو جئنا بمثله

مدداً . قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

واسمع إلى قوله جل جلاله : (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر : ما نفذت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم) .

أخا الإسلام :

تـأمل فى نبـات الأرض وانظر ... إلى آثـار ما صنع المليك
عيـون من لجين شاخصـات ... بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك ! !

فالله جل جلاله واحد فى ذاته لا قسيم له ، واحد فى صفاته لا شبيه له ، واحـد فى أفعاله لا شريك له .

وقد ألقى القرآن باللائمة ونعى على الذين وصفوا الله بأن له ولداً ، فقال سبحانه : (بديع السماوات والأرض : أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟) وقال جل فى علاه : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئاً إداً . تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولداً . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً) .

وهذا نفر من الجن بعد أن استمع إلى القرآن الكريم أشرق قلبه بنور التوحيد فقال : (إنا سمعنا قرآناً عجباً . يهدى إلى الرشد فآمنا به ،

ولن نشرك بربنا أحداً ، وأنه تعالى جدر بنا ، ما اتخذ صاحبة ولا ولداً) .

والله جل جلاله تنزه عن الجسمية ، فليس — سبحانه وتعالى — بجسم ، ولا معدود ، ولا محدود ، ولا متبعض ، ولا متجزىء ، ولا متلون ، ولا متكيف ، ولا يسأل عنه بمتى كان : لأنه خالق الزمان ، ولا بأين هو : لأنه خالق المكان ، وما خطر ببالك ، فالله تعالى بخلاف ذلك . . وفى ذلك يقول تبارك وتعالى قولا فصلا : (ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير) .

والوحدانية هى نداء الفطرة السليمة التى لم تكدرها انحرافات الهوى ، ولم تغيرها اتجاهات مريضة . .

• • •

وكأنى بذلك الأعرابى ، الذى كان له صنم يعبده ويقدم له واجبات التقديس والولاء . . يأتى ذات يوم ليسجد أمام صنمه فيجد به بللا غزيراً ، فيقف عاجباً : ما الذى أحدث البلل بهذا المعبود ؟ ويلتفت حواليه ، فيجد ثعلبين يلعبان بالقرب منه ، فيعلم أنهما (بالا) على صنمه ! ! وعند ئذ عاد إلى فطرته السليمة ، وأنشد قائلا :

رب يبول الثعلبان برأسه ؟ لقد ذل من بالت عليه الثعالب !
فلو كان رباً كان يمنع نفسه ، فلا خير فى رب نأته المطالب !
برئت من الأصنام فى الأرض كلها وآمنت بالله الذى هو غالب !

• • •

كل مولود يولد على الفطرة

لقد أخبر الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم بأن : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرناه » . ويقول ربنا تبارك وتعالى فى الحديث القدسى الجليل : « إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً » .

أخا الإسلام :

يكفى كلمة التوحيد شرفاً وقدراً أنها رسالة الأنبياء جميعاً ، قال تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى : لا إله إلا الله » .

* * *

والعقيدة الصحيحة للمؤمن أن يؤمن إيماناً حقاً لا حدود له بأن الله خالق كل شىء ومقدره : يقول تعالى فى الحديث القدسى الجليل : « يؤذينى ابن آدم : يسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أقلب الليل والنهار » ! !

فليس لنا أن نلقي باللائمة على الأيام والليالى ، فإنها من خلق الله ، وهذا معنى قوله تعالى فى الحديث : « وأنا الدهر » ، أى خالقه : (الله خالق كل شىء ، وهو على كل شىء وكيل) ، (يقلب الله الليل والنهار ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) ، (إنا كل شىء خلقناه بقدر) .

أخا الإسلام :

عش راضياً واترك دواعى الألم — واعدل مع الظالم ، مهما ظلم
نهـــاية الدنيـــا فنــاء فعش — فيها كريماً ، واعتبرها عدم

• • •

العقيدة الصحيحة

العقيدة الصحيحة هى التى لا يختلج قلب صاحبها شك فى قدرة الله وعظمته ويوم يتسرب الشك إلى قلبه فقـــد وقع تحت طائلة المقت والغضب ، وهذا هو حديث ربنا جل فى علاه يقول فيه : « كذبنى ابن آدم ، ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ، ولم يكن له ذلك : أما تكذيبه إياى فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادتهم ، وأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد ، لم ألد ، ولم أولد ، ولم يكن لى كفواً أحد » .

يا مبدع الخلق يا من لاشريك له — طوبى لمن عاش بين الناس يهواك !
إنى لأعجب ممن قد رأى طرفاً — من فيض جودك ـ ربى ـ كيف ينساك !
والله ماسعدت روحى ولا فرحت — فى الدهر ـ مابقيت ـ إلا بذكراك !

والعقيدة الصحيحة تقتضى من صاحبها ألا يسند الأمور لغير الله : فالله هو الخالق الذى لا يشاركه فى خلقه أحد ، فمن أسند الأمور فى إيجادها وتقريرها وتدبيرها وتصريف شؤونها ، فقد أصيب فى عقيدته بما يدعو إلى وجوب تصحيحها : ذلكم الله ربكم لا إله هو خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل) .

وقد جاء فى الحديث الشريف عن زيد بن خالد الجهنى رضى الله عنه قال : صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من المدينة ، فلما انصرف النبى صلى الله عليه وسلم أقبل على الناس فقال لهم : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : أصبح من عبادى مؤمن بى ، وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته : فذلك مؤمن بى ، كافر بالكواكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكـذا : فذلك كافر بى ، مؤمن بالكواكب » .

وفى هذا الحديث الشريف ما يرشد إلى أن الذين أسندوا فعل المطر إلى فضل الله ورحمته : كانوا مؤمنين بالله (وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته ، وهو الولى الحميد) . وأما الذين أسندوا إنزال المطر إلى كوكب من كواكب السماء فقد تنكبوا الجادة وحادوا عن الصراط السوى : فالكواكب وغيرها من المخلوقات لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً ، فهى من باب أولى لغيرها كذلك . « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر : لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) .

أخا الإسلام :

كن عن همومك معرضاً وكل الأمور إلى القضا
وانعم بطول سلامة تسليك عما قد مضى
فلربما اتسع المضيق وربما ضاق الفضا
ولرب أمر مسخط لك فى عواقبه رضا
الله يفعل ما يشاء فلا تكن متعرضا

• • •

العقيدة . . ومراقبة الله تعالى

أخي القارئ الكريم ، لما كانت العقيدة هى مركز الدائرة التى تدور حوله شعائر العبادات ومبادىء الأحكام وقواعد النظام ، فقد حرص الإسلام حرصاً شديداً على أن يحيط ذلك المركز بسياج منيع وأسوار عالية لا يستطيع الشك أن يلقى ببذوره فى ساحتها المقدسة ، أو أن يقتحم عليها حصونها المكينة .

اقرأ معى قول الله تبارك وتعالى ، حيث يؤكد لعباده المؤمنين أنه محيط بكل شىء :

« ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض : ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شىء عليم » .

فهذه الآية بجلالها وعظيم شأنها تملأ قلب المؤمن بمراقبة الله تعالى وهيمنة سلطانه . واطلاعه على الخفايا والأسرار ، وبمكنون الصدور والأخبار . . ثم اقرأ قوله جل شأنه : « يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير) .

(ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) فماذا قال لهما عالم الغيب والشهادة (قال : لا تخافا : إننى معكما أسمع وأرى)

وما أجل قوله تعالى فى الحديث القدسى الجليل : « ما وسعنى أرضى ، ولا سمائى . وإنما وسعنى قلب عبدى المؤمن » !

فإذا ما حاول الشيطان أن يرسل وساوسه كالطفيليات التى تحاول أن تتغذى على حساب النبات الصالح — فعلى صاحب العقيدة الصحيحة أن يستعيذ بالله منه ولا يعبأ لوساوسه : (إن كيد الشيطان كان ضعيفاً) .

يقول صلوات الله وسلامه عليه : « يأتى الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا وكذا ؟ حتى يقول له : من خلق ربك ؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته » .

وفى حديث آخر : « هذا خلق الله الخلق ، فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئاً : فليقل آمنت بالله » !

* * *

الداء والدواء

صدقت يا سيدى يا رسول الله ، يا من كنت تشخص الداء وتصف الدواء ، فليس أمام وساوس الشيطان وحربه النفسية إلا أن يستعصم الإنسان بربه ، ويثبت قلبه بالقول الثابت ، فما تكون وساوسه بعد ذلك ؟ إنها كذبابة تحاول أن تحجب بجناحيها ضوء الشمس أو نور القمر . . وما يكون كيده بإزاء قلب امتلأ بتوحيد الله ؟ إنه مهما حاول بوساوسه أن يغير أو يبدل هذه القلوب ، فإن مثله (كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ما هو ببالغه) ،وسرعان ما يندحر مخذولا محسوراً ، كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، أو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

الله ربى لا إلـه سـواه هل فى الوجود حقيقة إلاه ؟ !
يا من لـه وجب الكمـال لذاته الكل غاية فوزهم لقياه !

• • •

الإيمان والإخلاص

الإخلاص : شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

والرياء : شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار . .

القلوب المخلصة ترسل أشعتها فتضيء للناس طريق النجاة .

والقلوب المرائية تفرز سواداً قاتماً وظلمة حالكة تتعثر المجتمعات فى سراديب ضلالها .

وقد أمر الله عباده المؤمنين بالإخلاص – فقال للمبعوث رحمة للعالمين . (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين) . وقال : (قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين * وأمرت لأن أكون أول المسلمين) ، وقال : (قل الله أعبد مخلصاً له دينى) ، وقال سبحانه (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) .

فالإخلاص هو الروح السارية فى الإيمان عقيدة أو عبادة أو معاملة ، وبغير الإخلاص تصبح أعمال المسلم نواة لا روح فيها .

وليس أدل على ذلك من أن الله مدح المخلصين بقوله ، (إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله ، فأولئك مع المؤمنين ، وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيما) .

وألقى القرآن باللوم الشديد والزجر العنيف على هؤلاء الذين يراءون الناس ولا يبتغون بأعمالهم ما عند الله ، فقال سبحانه : (فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراءون ويمنعون الماعون) .

فما هو الإخلاص ؟

الإخلاص أن يقصد العبد بعمله وجه الله وحده لا شريك له ، ومن ثم : فقد أوصى الله ورسوله أن يصبر نفسه مع هؤلاء الذين قال فيهم : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً) .

وقطع القرآن الحيل المراوغة التى أراد بها أهل الباطل أن يباعدوا بها بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين هؤلاء المخلصين المتواضعين ، فقال فى كتابه العزيز : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) وأوصاه بهم خيراً فقال : (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم) .

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يبسط لهؤلاء النفر رداءه ليجلسهم عليه ويلقاهم مرحباً بهم فيقول : « مرحباً بمن أوصانى ربى بهم خيراً » » !

• • •

وهذه درجات المخلصين يبينها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول :

« طوبى للمخلصين : أولئك مصابيح الهدى ، تنجلى عنهم كل فتنة ظلماء » .

إنما الأعمال بالنيات

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى : فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو إمرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

وليس أمر الإخلاص فى النية قاصراً على الدنيا وحدها ، بل إنه يمتد أثره إلى ما بعد الموت . . فالناس يبعثون على ما ماتوا عليه . فإن كانت نياتهم مخلصة لله بعثوا يوم القيامة مع المؤمنين الناجين من عذاب الله ، وإن لم تكن النيات مخلصة فالويل والعذاب . .

قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يغزو جيش الكعبة : فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم ، قالت : قلت يا رسول الله : كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم ؟ قال : يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم » .

تأمل هذا الحديث الشريف : تجد أن الجيش الذى سيغزو بيت الله الحرام سيخسف به قبل أن يحقق ما يريده من البغى والإفساد ، وسيموت معه قوم ليسوا منهم ، والنيات هى التى ستكون فيصلا حاسما وحازماً فى الأمر ، وإن كان الجميع قدمات ، إلا أن مدار الجزاء : على النية . . فالنية السيئة تهوى بصاحبها إلى أسفل الدركات ، والنية المخلصة ترفع أهلها إلى أعلى الدرجـــات .

بل لقد شاء الله الكريم — بفيضه وجوده — أن يجرى الثواب ويمنح الحسنات لقوم لم يستطيعوا أن يشاركوا فى الأعمال الجليلة : لأن الأعذار منعتهم وكان فى نياتهم لو استطاعوا لفعلوا . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر أصحابه فيقول لهم وهم فى إحـــدى الغزوات : إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيراً ، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم : حبسهم المرض » وفى رواية : « إلا شاركوكم فى الأجر » .

ولذا قـــال القائل :

يا راحلين إلى البيت العتيق لقـــد	سرتم جسوماً ، وسرنا نحن أرواحاً
لقد أقمنا على عـــذر وعن قـــدر	ومن أقام على عذر فقد راحا

• • •

والإخلاص فى النفقة — حتى على الأهل الذين تجب لهم النفقة — يجعل لصاحبها ثواب الصدقة ، قال صلى الله عليه وسلم . « إذا أنفق المسلم على أهله نفقة ، وهو يحتسبها : كانت له صدقة » .

وكل ما يقصد الإنسان به وجه الله من الخير فهو صدقة ، وأجر وثواب وذخر ، وها هو ذا سعد بن أبى وقاص يروى لنا هذا المشهد فيقول : جاءنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودنى عام حجة الوداع من وجع اشتد بى ، فقلت يا رسول الله : إنى قد بلغ بى من الوجع ما ترى ، وأنا ذو مال ، ولا يرثنى إلا أبنة لى ، أفأتصدق بثلثى مالى ؟ قال لا ، قلت . فالشطر يا رسول الله ؟ فقال لا ، قلت فالثلث يا رسول الله ؟ قال : الثلث ، والثلث كثير ، أو كبير – إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ، وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل فى (فى) إمرأتك » أى فمها .

ولكون الإخلاص هو الأساس فى قبول الأعمال : نسمع أبا هريرة رضى الله عنه يروى فيقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ، ولا إلى صوركم،ولكن ينظر إلى قلوبكم » رواه مسلم .

ولقد كان المسيح عليه السلام يقول : « يا بنى إسرائيل : لا تأتونى تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضوارى ، ولكن البسوا ثياب الملوك وألينوا قلوبكم بخشية الله » .

أخا الإسلام :

ودع الكذوب فلايكن لكصاحباً إن الكذوب يشين حراً يصحب

يلقاك يقسم أنه بك واثق ... وإذا توارى عنك فهو العقرب
يسقيك من طرف اللسان حلاوة ... ويروغ منك كما يروغ الثعلب

• • •

صدقت يا سيدى يا رسول الله يا من قلت : « ولكن ينظر إلى قلوبكم » ، فقد قال تعالى فى الحديث القدسى الجليل : « الإخلاص سر من أسرارى ، استودعته قلب من أحببت من عبادى ، لا يطلع عليه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده » .

أخا الإسلام :

إذا المرء لا يلقاك إلا تكلفاً ... فدعه ، ولا تكثر عليه التأسفا
فما كل من تهواه يهواك قلبه ... ولا كل من صافيته لك قد صفا
إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة ... فلا خير فى ود يجيء تكلفاً
ولا خير فى خل يخون خليله ... ويلقاه من بعد المودة بالجفا
وينكر عيشاً قد تقادم عهده ... ويظهر سراً كان بالأمس فى خفا
سلام على الدنيا إذا لم يكن بها ... صديق وفى يصدق الوعد منصفاً

صدقت يا سيدى يا رسول الله ، يا من قلت : « لا تصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقى » ، ويا من قلت : « المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل » .

الإخلاص فى الجهاد

إن الإخلاص يأخذ مكانته اللائقة به فى كل شيء ، بل وفى أخطر الأشياء : فى الجهاد ، الذى نسترخص الأرواح فى أسواقه ، والذى نجود فيه بالمهج والنفوس !

لقد قال الصادق الأمين بعد أن هاجر إلى المدينة : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونيّة ، وإذا استنفرتم فانفروا » أى لا هجرة من مكة بعد فتحها فقد صارت دار إسلام ، ولكن يدور الأمر على الجهاد المقترن بالنية المخلصة ، فلو لم تكن هناك نية فلا جهاد ، والجهاد هنا بمعناه الواسع : جهاد الكلمة ، جهاد النفس ، جهاد السيف .

استمع معى إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه : وهو يسأل فيجيب ببلاغة موجزة وبيان صريح :

عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء : أى ذلك فى سبيل الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » متفق عليه.

* * *

الإخلاص فى الصلاة

وننتقل الآن من دور الإخلاص فى ساحة الجهاد وميادين القتال إلى دوره فى الصلاة وكثرة الخطأ إلى المساجد ، حيث يخبر الصادق

الأمين صلوات الله وسلامه عليه فيقول : « صلاة الرجل فى جماعة تزيد على صلاته فى سوقه وبيته بضعاً وعشرين درجة وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا يريد إلا الصلاة : لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة ، حتى يدخل المسجد ، فإذا دخل المسجد كان فى الصلاة ما كانت الصلاة هى تحبسه ، والملائكة يصلون على أحدكم مادام فى مجلسه الذى وصل فيه ، يقولون : اللهم ارحمه ، اللهم أغفر له ، اللهم تب عليه : ما لم يؤذ فيه ، ما لم يحدث فيه » متفق عليه .

• • •

تعال يا أخا الإسلام لتنهل من هذا الفيض الربانى ، وترتشف من هذا الرحيق الصافى من الكوثر المعسول والكرم الإلهى . . إليك ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم عن فضل الله العلى العظيم جل جلاله فى الحديث القدسى الجليل حيث يقول : « إن الله كتب الحسنات والسيئات » ثم بين ذلك : « فمن هم بحسنة فلم يعملها : كتبها الله تبارك وتعالى عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها : كتبها الله عشر حسنات ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها : كتبها الله تعالى عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها : كتبها الله سيئة واحدة » .

فبالإخلاص يصح الإيمان ، وبالتوحيد يرتفع البنيان ، وبالإيمان والتوحيد والإخلاص تبنى النفوس . .

فما أعظم الإيمان فى بناء النفوس ! !

النفـاق

النفاق ضد الإخلاص . . فإذا كان الإخلاص هو أن يقصد العبد بعمله وجه الله تعالى ، فإن النفاق على النقيض من ذلك . حيث يكون المقصود بالعمل غير الله ، ومن ثم : لا يكون هناك إخلاص ، وعندها تختل الموازين ، وتنهار القواعد ، ويهتز المجتمع . .

فإذا كان الإخلاص هو حجر الأساس فى بناء النفوس : فإن النفاق أكبر معول يحطم النفوس .

والنفاق ضد الإيمان ، والمنافقون فى كل زمان ومكان : عالة على المجتمعات فى السراء ، وسوس ينخر فى عظام الأمة ساعة الضراء ، لا يعدون للجهاد عدة ، ولا يتمنون للمجاهدين عودة : (يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا ، قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، وليبتلى الله ما فى صدوركم ، وليمحص ما فى قلوبكم) ، (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزاً لو كانوا عندنا ما ماتوا وماقتلوا ، ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم ، والله يحيى ويميت ، والله بما تعملون بصير) ، (الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا : لو أطاعونا ما قتلوا ، قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) !

هذه أقوال أصحاب الرياء والنفاق فى تثبيط الهمم وتحبيط العزائم ، (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا) ! !

إن الله جل جلاله يحب المخلصين ، ويبغض أهل الرياء المنافقين . . لقد حكم بالعذاب فى جهنم على نماذج من الناس : أقوالهم معسولة ، وقلوبهم أمر من الصبر . . يلقاك أحدهم عناقاً ، ويقسم أنه لا يطيق لك فراقاً . . ملاك فى مظهره ، شيطان فى مخبره . . يلقاك بوجه أبى ذر ، وقلب أبى جهل . .

يقول جل فى علاه : (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام ه وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد ه وإذا قيل له اتق الله أخــذته العزة بالإثم ، فحسبه جهنم ، ولبئس المهاد) ! !

أقسام النفــاق

والنفاق أقسام ثلاثة : نفاق فى العقيدة : يضمر صاحبه الكفر فى قلبه ، ويظهر الإسلام على لسانه .

ونفاق فى العبادة : يدخل فيها على حرف غير متمكن ولا متثبت .

ونفاق فى المعاملة : لا يعامل الناس بما يتفق وقواعد الأخــلاق الإسلامية .

وقد أفاض الكتاب العزيز والسنة المطهرة فى بيان هذه الأقسام ، والتحذير منها ، نوضحها فيما يلى :

النفاق فى العقيدة

يقول جل جلاله فى هؤلاء : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر ، وماهم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون) ثم تبين الآيات الكريمة أن ما أصاب هؤلاء ليس مرضاً جسمانياً فى عضو من أعضائهم ، أو مرضاً فسيولوجيا فى قلوبهم ، إنما هو مرض من أخطر الأمراض . . إنه مرض النفاق : (فى قلوبهم مرض ، فزادهم الله مرضاً ؛ ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) ، ثم يشرح القرآن أعراض هذا المرض ، ويحكم على كل عرض منه ، فيقول عن هؤلاء : (وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون) فيصدر الحكم الصادق : (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) .

ثم يذكر عرضاً آخر فيقول : (وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ؟) فيصدر الحكم الصادق : (ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) ، ثم يذكر عرضاً ثالثاً فيقول . (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا . إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون) فيصدر الحكم الصادق : (الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) ثم يحكم على هؤلاء جميعاً

بقوله جل شأنه : (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) .

ثم يصورهم فى مثلين عجيبين : أحدهما للمنافقين الخلص ، الذين لا تشوب قلوبهم شائبة الإخلاص ، ولا تنفتح فيها نافذة تضئ لها طريق المعرفة فيقول تعالى : (مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله ، ذهب الله بنورهم ، وتركهم فى ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمى فهم لا يرجعون) .

والمثل الآخر لقوم مترددين متحيرين لا يستقرون على حال ، ولا يثبتون على مبدأ ، فهم فى غيهم يترددون . . ذلك لأن قلوبهم قد ارتابت وتحيرت ، فيقول : (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت ، والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، إن الله على كل شئ قدير) .

وتأتى سورة « النساء » لتضيف إلى هذه الأعراض التى ذكرناها أعراضاً أخرى لمرض النفاق . . فى موطن الجهاد والخروج إلى القتال يقول الله فى حق هؤلاء : (وإن منكم لمن ليبطئن : فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيداً * ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة : ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما) ويحكم الله على هذا الفريق بقوله :

(بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليما . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة ؟ فإن العزة لله جميعاً . وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ، إنكم إذا مثلهم ، إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً . الذين يتربصون بكم : فإن كان لكم فتح من الله ، قالوا : ألم نكن معكم ؟ وإن كان للكافرين نصيب ، قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ؟) .

إذا : فحياة هؤلاء : استغلال وانتهاز للفرص ، وأنانية ، وحقد ، وحسد !

ثم يذكر القرآن عرضاً آخر لهذا الوباء الخطير والشر المستطير فيقول سبحانه (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا . مذبذبين بين ذلك : لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء) . . ثم يصدر الحكم الصادق على هؤلاء المنحرفين عن طريق الجادة فيقول : (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيراً) .

وبعد أن شخص الكتاب العزيز هذا الداء الوبيل : وصف الدواء ، مهما كان خطر الداء مستحفلا ، ومهما سرى سريان النار في الحلفاء ، والسم الزعاف في الأحشاء . . إن الدواء الناجح ، والعلاج النافع لهذا المرض يتمثل في :

التوبة ، الإصلاح ، الاعتصام ، الإخلاص .

توبة نصوح إلى الله . وإصلاح بين الناس ، واعتصام بحبل الله ، وإخلاص لدين الله . . قال عز من قائل (إلا الذين تابوا ، وأصلحوا ، واعتصموا بالله ، وأخلصوا دينهم لله ، فأولئك مع المؤمنين ، وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيما) .

نفاق العبادة

وهذا النوع الخبيث من النفاق وصف القرآن الكريم أصحابه بأنهم إذا عبدوا الله لا يعبدونه عبادة الواثق المطمئن ، وإنما يدخلون العبادة على جزء يسير ، وحرف ضعيف ، وطرف غير ثابت : فإن أصابهم خير من مال وولد وصحة وجاه : اطمأنوا لهذا الجزء اليسير من الدين ، وإن أصابتهم فتنة ، من مرض أو فقر أو ابتلاء : انقلبوا على وجوههم خاسرين ، لا يعرفون لله حقاً ، ولا لرسوله واجباً .

ولقد صورت الآية هؤلاء تصويراً قوياً ، فقال سبحانه : (ومن الناس من يعبد الله على حرف : فإن أصابه خيرٌ اطمأن به ، وإن أصابته فتنة : انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين) .

هؤلاء فقدوا أهم صفات الإنسانية الصحيحة : ألا وهى صفة الوفاء ، التى إذا فقدها الإنسان أصبح جسداً لا روح فيه .

كلمة عن الوفاء

إذاً : وجب علينا أن نعقب على هذا الجانب بكلمة عن الوفاء ، لعظيم أثره ، وجليل خطره ، خصوصاً إذا كان مع الله ، فنقول ، وبالله التوفيق :

إن الله جل جلاله أوصى فى كثير من آياته بالوفاء فى جميع العهود وشتى العقود . فقال سبحانه : (وأوفوا بالعهد ، إن العهد كان مسئولا) . (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) ، وقد أخذ مولانا تبارك وتعالى عقوداً على عباده وعهوداً على خلقه ، فأول عقد أبرم : ذلك الذى شهد العباد فيه لربهم بأنه الرب الواحد الذى لا شريك له ، وكان ذلك لعموم البشرية بمختلف أشكالها ونماذجها ، قال سبحانه : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) .

وأخذ مولانا تبارك وتعالى عهداً على الأنبياء أن يؤمنوا وينصروا ذلك الرسول — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين — الذى سيختم به الرسالات . ومعنى نصرته : أن يوصوا أتباعهم إن هم أدركو زمانه أن ينصروه ويؤيدوه . قال عز من قائل : (وإذ أخذ الله ميثاق

النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا : أقررنا ، قال فاشهدوا ، وأنا معكم من الشاهدين ، فمن تولى بعد ذلك ، فأولئك هم الفاسقون) .

وأخذ الله على العلماء عهداً وأبرم معهم عقداً أن يبينوا للناس مـا أنزل إليهم مـن ربهم ولا يكتموا منه شيئاً ، فقال سبحانه : (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ، فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا ، فبئس ما يشترون) .

الوفاء بالعهد

وهناك عقود كثيرة ــ غير هذه ــ أوصى الله برعايتها وصيانتها ، فقال سبحانه (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها) ، وقال جل شأنه : (وبعهد الله أوفوا) .

فإذا أبرم المسلم عقداً : وجب احترامه ، وإذا أعطى عهداً : وجب الإلتزام به .

ومن الإيمان : أن يكون المرء عند كلمة قالها ، ينتهى إليها كما ينتهى الماء عند شطآنه ، وأن يكون عند عهد قطعه على نفسه ، فيعرف بين الناس بالوفاء ، وبأن كلمته موثق غليظ ، لا خوف من نقضها ، ولا مطمع فى اصطيادها .

ولابد من الوفاء بالعهد ، كما أنه لابد من البر باليمين ، ومناط الوفاء والبر : أن يتعلق الأمر بالحق والخير ، وإلا فلا عهد فى عصيان ، ولا يمين فى مأثم ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها ، فليكفر عن يمينه ، وليفعل الذى هو خير » .

ومن ثم : فلا تعهد إلا بمعروف . فإذا وثق الإنسان عهداً بمعروف : فليصرف همته فى إمضائه ما دامت فيه عين تطرف ، وليعلم أن منطق الرجولة وهدى اليقين لا يتركان له مجالا للتردد والانثناء .

سبحانك ربى : عظمت رأفتك ، وجلت حكمتك ، وبلغت قدرتك ، ووسعت رحمتك .

ما أجل الوفاء بالعهد ! ومن أعظم وفاء من الله بتنفيذ عقده الذى عقده مع المؤمنين ؟ ! عقد بيع وشراء : أعطاهم الجنة بعد ما اشترى منهم الأنفس والأموال ، وهى ملكه ، وهو خالقها ، ثم قال سبحانه : (وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن) ، ثم قال : (ومن أوفى بعهده من الله ؟ !) .

فى مدرسة الوفاء بالعهود تربى خريجو المعاهد الإسلامية التى اتصفت بحميد السجايا وكريم الشمائل .

روى أنس بن مالك رضى الله عنه قال : غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر ، فقال : يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت

المشركين ! ! لئن أشهدنى الله مع النبى قتال المشركين ليرين ما أصنع ! ! فلما كان يوم « أحد » انكشف المسلمون ، فقال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء — يعنى أصحابه — وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء — يعنى المشركين — ثم تقدم . . فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا سعد بن معاذ : الجنة ورب النضر ! إنى لأجد ريحها دون أحد ! ! ! قال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع ، ثم تقدم . . قال أنس : فوجدنا به بضعاً وثمانين ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ورمية بسهم ، ووجدناه وقد مثل به المشركون ، فما عرفه إلا أخته بشامة أو ببنانه . .

قال أنس : كنا نرى أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه : فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا) .

والقرآن العظيم يعقب على هذا الموقف فيقول : (ليجزى الله الصادقين بصدقهم ، ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم) .

فهؤلاء الذين قدروا الوفاء قدره ، وعرفوا الله حقه : لا يعرف النفاق إلى قلوبهم سبيلا ، لأنهم رجال أبطال ، وقفوا مواقف الشرف فى ساعات العسرة وأوقات الشدة .

فعليك يا أخى أن تأخذ عنهم القدوة ، وتجعل منهم الأسوة الحسنة . رضى الله عنهم ، ورضوا عنه .

نفاق المعاملة

وهذا هو القسم الثالث من أقسام النفاق . . ويتمثل فى صور سيئة تتعلق بالمعاملات . .

لقد دلت الأحاديث الصحيحة التى رويت عن المعصوم صلى الله عليه وسلم أن هناك آيات وعلامات وأمارات : من اتصف بها كان منافقاً .

وعندما « نغربل » هذه الصفات ونطرحها على بساط البحث ، نجدها تدور حول خمس صفات :

١ ــ إذا حدث كذب . ٢ ــ إذا وعد أخلف .
٣ ــ إذا أؤتمن خان . ٤ ــ إذا عاهد غدر .
٥ ــ إذا خاصم فجر .

ولعلك ــ أيها القارىء الكريم ــ تلمح أن هذه الصفات كلها على النقيض من صفات المؤمنين : فالمؤمن إذا حدث صدق ، وإذا وعد وفى ، وإذا أؤتمن أدى ، وإذا عاهد أنجز . وإذا خاصم لايجور ولا يفجر .

قل لى بربك : لو وجدت هذه الخصال ــ خصال المنافقين ــ فى أمة : هل تقوم لها قائمة ، أو ترتفع لها راية ؟ اسمع معى إلى قول رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يحث على الصدق ويحذر من الكذب ، فيقول : عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » :

وما أروع هذا البيان الموجز الذى وصى به الرسول الأمين — صلوات الله وسلامه عليه — أحد طالبي الوصية فقال له : « لا تكذب » .

ولعل الوباء الذى استشرى ، والخطر الذى استفحل فى هذه الحياة : إنما يرجع إلى أصل واحد : هو الكذب ، فالكذاب خائن فى وعده ، وفى عهده ، وفى أمانته ، وفى خصومته . . لا يقيم للقيم الأخلاقية وزناً ، ولا للمثل العليا قدراً ، لأنه يعيش فى هذه الدنيا عيشة السائمة ، لا تبتغى إلا أن تأكل وتملأ جوفها ، وهى تعلم أن هلاكها فى سمنها .

الصدق من صفات الرسل :

ولقد لقب الرسول صلى الله عليه وسلم قبل رسالته بأنه « الصادق الأمين » . . هكذا شهد له بنو قومه ، حتى إنك ليأخذك العجب ، وتستولى عليك الدهشة عندما تتأمل هذا الموقف الذى وقفه صلى الله عليه وسلم عند الهجرة : فقد خلف على بن أبى طالب وراءه ليؤدى الودائع إلى أهلها . . إذ أن أهل مكة كانوا لا يأمنون أحداً على ودائعهم إلا الصادق الأمين ، صلى الله عليه وسلم .

ولقد مدح الله إسماعيل عليه السلام بقوله : « واذكر فى الكتاب اسماعيل إنه كان صادق الوعد ، وكان رسولا نبياً ، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكان عند ربه مرضياً) .

وأمر الله عباده أن يكونوا مع الصادقين ، فقال عز من قائل : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) .

وصف الله أصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم بأنهم أهل الصدق ، فقال : (يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون) .

إذن : مدار الأمر كله يعود إلى الصدق فى القول ، والإخلاص فى العمل .

ويوم يتوفر هذا الجانب فى نفس المؤمن : فلسوف ينتظم منهجه فى الحياة ، ويستقيم خلقه بين الناس . .

فالصدق فى الحديث : مطابقة الخبر للواقع ، والصدق فى الوعد : الوفاء به ، والصدق فى الأمانة : أداؤها ، والصدق فى العهد : الحرص على إنجازه ، والصدق فى الخصومة : قول الحق ، ولو على نفسك .

وإننا لا ننسى هذا المشهد الرائع ، والموقف الجليل الذى وقفته أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاءها بعد ما نزل عليه الملك فى « غار حراء » يأمره بالقراءة ،

ودخل الرسول صلى الله عليه وسلم على زوجته الوفية يرجف فؤاده . . فماذا كان قولها لتزيل عنه ما ألم به ؟

لقد وصفته بكريم الشمائل ، وحميد السجايا ، وقالت له : « والله لا يخزيك الله أبداً » ودعمت قولها بتلك الحيثيات القوية : « إنك لتصدق الحديث ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » . .

صلى عليك الله يا علم الهدى . .

• • •

ما يجب أن يكون عليه المسلم :

أخى المسلم : هذه صفات الرجال الذين يريدون أن يشيدوا صروح الكرامة فى الحياة ، ويضيئوا شموس الهداية لأقوامهم .

ولكى يكون الإنسان من هؤلاء : لابد أن يكون وفياً بعهده ، ولكى يكون كذلك : لابد وأن يلتزم بعنصرين :

العنصر الأول : الذكر . والعنصر الثانى : قوة العزيمة .

ولذلك ختم الله آية الوفاء بالعهد بقوله : (وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) .

وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم : « فإذا عزمت فتوكل على الله » ، وما أكل آدم من الشجرة إلا عندما نسى العهد ، قال تعالى : (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل ، فنسى) .

ولقد أكد القرآن فى آيات كثيرة على لفظ « الذكر » فختمها قائلا :

(كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) ، (قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) إلى غير ذلك من الآيات .

فإذا قوى العزم : قويت الإرادة ، فتجشم الإنسان كل الصعاب فى سبيل الوفاء والأداء . . قال تعالى : (وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) .

* * *

الرياء ، وأثره فى النفوس

وإذا كان النفاق ضد الإيمان ، فإن الرياء ضد الإخلاص ، فكما لا يجتمع نفاق وإيمان فى قلب واحد ، كذلك لا يجتمع رياء وإخلاص فى قلب واحد ، وحيث قد علمنا النفاق وما يدور حوله وما يشتمل عليه من نفاق فى العقيدة أو العبادة أو المعاملة ، فقد رأينا أن نذكر كلمة عن الرياء ، وهو أن يقصد العبد بعمله غير وجه الله تعالى . وفى هذا يحذر العلى العظيم هؤلاء المرائين فيقول فى الحديث القدسى الجليل : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك : من عمل عملا أشرك فيه غيرى : تركته وشركه » . وجاء فى الحديث أيضاً : « يخرج آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين (١) ، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ،

(١) معنى قوله : «يختلون الدنيا بالدين» . أى ينتزعون خيرات الدنيا ويحصدونها باسم الدين ومعنى قوله : «يلبسون للناس جلود الضأن من اللين» : هو كناية عن لينهم للناس ظاهراً ، وإضمار السوء باطناً وخداعاً ، فليس فى قلوبهم محبة للعباد ، بل يحبون أنفسهم فقط ، ويخادعون الناس بإظهار حبهم ، قاصدين بذلك أغراضاً دنيوية ، كما يريدون احترام الناس لهم بتحسين ظواهرهم. ومعنى قوله جل جلاله «أبى يغترون ؟» أى يغترون بحلمى عليهم بتأخير عقوبتهم ؟

ومعنى قوله تعالى : « بى حلفت » أى حلفت بى وحدى لا يستحقها غيرى ، كما لا يجوز لأحد أن يحلف بغير الله تعالى ، وإن كان معظماً عند الناس . . قال صلى الله عليه وسلم : لا تحلفوا أيها الناس بآبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله ، أو ليدع »

ألسنتهم أحلى من السكر ، وقلوبهم قلوب الذئاب . يقول الله عز وجل : أبى يغترون ؟ أم على يجترئون ؟ فبى حلفت لأبعثن عليهم فتنة تدع الحليم منهم حيران » .

فكن قوى الثقة با لله ، فلا قلبك يميلن إلى رياء أو حب سمعة :

العزة فى طلب الرزق

أخا الإسلام :

لا تخضعن لمخلوق على طمع ... فإن ذلك نقص منك فى الدين
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة ... إلا بإذن الذى سواك من طين
فلا تصاحب غنياً تستعز به ... وكن عفيفاً وعظم حرمة الدين
واسترزق الله مما فى خزائنه ... فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما ... استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

° ° °

لقد كان موقف الإيمان دائماً من أتباعه : يدور حول الثقة فى الله والاعتزاز بطاعته . . فالروح والرزق لا يملكها إلا الله تبارك وتعالى :

قال صلى الله عليه وسلم : « إن روح القدس نفث فى روعى إنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها » .

فيا أخى :

لا تعجلن فليس الرزق بالعجل ... الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجل

فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا   لكنه : خلق الإنسان من عجل ! !

واعلم بأنه لا يمكن أن تحصل على شيء ليس لك ، ولا يمكن أن يضيع منك شيء هو لك ، فلا تنافق على حساب دينك أو كرامتك أو عزة نفسك ، واقصد بعملك وجه خالقك . قال تعالى : (هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ لا إله إلا هو) !

الرياء يفسد العمل ويحبطه :

لقد بلغ من موقف الوحي أنه أجاب على سؤال رجل جاء يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول له : يا رسول الله إني أصلي طاعة لربي وليراني الناس . وإذا بالأمين جبريل عليه السلام ينزل بهذه الآية الكريمة : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » فالرياء في العبادة خبث لا يليق : كذلك الرياء في معاملة الناس . قال عز من قائل : « يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ، إذ يبيتون مالا يرضى من القول ، وكان الله بما يعملون محيطاً » .

ولقد أخبر الصادق المعصوم أن من شر الناس يوم القيامة ذا الوجهين : يأتي هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه .

ولعلك يا أخي ترتعد منك الفرائص عندما تقرأ هذا الحديث النبوي الشريف الذي أودى الرياء فيه بقوم قدموا أعمالا ولم يقصدوا بها وجه الله . . أودى بهم إلى النار وعذابها . . قال صلى الله عليه وسلم :

« إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه : رجل استشهد ، فأتى به فعرفه الله نعمه ، فعرفها ، قال فما عملت فيها ؟ قال قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال كذبت . ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه الله نعمه ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال قارىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار . ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال ، فأتى به فعرفه الله نعمه ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ! ! » رواه مسلم .

أرأيت إلى الرياء ، كيف يحبط الأعمال مهما بلغت وجلت وعظمت ؟ أبعد القتال والعلم والإنفاق أعمال تقاس بها ؟ ومع ذلك فإن دخول الرياء فيها هشم أسوارها ، وحطم بنيانها ، وقوض أركانها ، وأزال قوتها ، وضيع ثوابها ! !

نعوذ بالله من الرياء !

لقد صدق الله رب العالمين حيث يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى . كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن

بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا ، والله لا يهدى القوم الكافرين » .

إن النفس تسيل مرارة ، وإن الكبد تظل مقروحة عندما نقرأ هذا الحديث الشريف وتلك الآية الكريمة . . فالمراءون يحاولون أن يخادعوا — حتى وهم واقفون بين يدى الله — ويحاولون أن يظهروا أنهم قدموا الأعمال ابتغاء مرضاته ، فيقول لهم الله جل جلاله : كذبتم !

إن هذه الكلمة لها وقع تكاد الجبال تخر له هداً ، وما ذاك إلا لاختلاط الرياء بالأعمال ، فأزال ثوابها كما يزيل المطر الغزير تراباً على حجر ، فيتركه أملس ناعماً لا شيء عليه ! !

تنبيه وتحذير :

واعلم أن المرائى لا يغيب أمره عن الناس ، مهما طال به عهد الرياء . بل لابد أن تظهر حقيقته أمام الخلق فى يوم ما . قال صلوات الله وسلامه عليه : « من سمع : سمع الله به ، ومن يرائى : يرائى الله به » (١) .

ولقد كان أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يقول : « من تزين للناس بما يعلم الله منه خلاف ذلك : هتك الله ستره وأبدى فعله » !

(١) والمعنى أن (سمع) بتشديد الميم : معنا أظهر عمله للناس رياء ، ومعنى (سمع) الله به : أى فضحه يوم القيامة ، ومعنى من راءى ، راءى الله به : أى من أظهر للناس العمل الصالح ليعظم عندهم راءى الله به : أى أظهر سريرته على رؤوس الخلائق .

وما من شك فى أن أخطر الأشياء التى يحبطها الرياء : العلم ، إذا كان المقصود به غير الله ، وغير ما عند الله . . قال ﷺ : « من تعلم علماً يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا : لم يجد عرف الجنة يوم القيامة — يعنى ريحها » رواه أبو داود .

ونصيحتى :

على كل مسلم مخلص أن يراعى الله فى كل فعله . . يقول القرآن الكريم مظهراً هذه القضية : (قل إن صلاتى ونسكى ، ومحياى ، ومماتى ، لله رب العالمين « لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين) .

ولقد صدق رسول الله ﷺ عندما جعل دستور الحياة أمام الناس هذه الكلمات الفاصلة : « من أرضى الله بإسخاط الناس : كفاه الله ما بين الناس ، ومن أسخط الله بإرضاء الناس : وكله الله إلى الناس ، ومن أصلح سريرته : أصلح الله علانيته » .

فائدة جليلة :

ونختم هذا الباب بهذه الفائدة الشرعية الجليلة :

هناك من الأمور من يتوهم الإنسان أنه رياء ، وليس برياء ، ومثل هذا ما روى عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قيل لرسول الله

ﷺ : « أرأيت الرجل الذى يعمل من الخير ويحمده الناس عليه ! قال : تلك عاجل بشرى المؤمن » رواه مسلم . ومعنى هذا أن الناس إذا أثنوا بلسان الحق على من يفعل الخير فليس هذا رياء ، إنما هو من باب قول الله تبارك وتعالى فى الحديث القدسى : « عبدى لم تشكرنى إن لم تشكر من أجريت لك النعمة على يديه » .

اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

الثبات على المبدأ

إذا علمنا أن النفاق والرياء هما من الأمراض الخطيرة التى تهدم الأمم وتقوض المجتمعات ، بل من أشدها خطراً . . فما العلاج ؟ وما السبيل إلى البناء القويم لهذه المجتمعات ؟

لم أجد أنجح ولا أنفع فى بناء المجتمع : أفضل من الثبات على المبدأ ، وأعنى به : مبدأ الحق والشرف والرجولة والاعتزاز بأوامر الله وطاعة رسوله ، ذلك لأن النفس لا تنحدر إلى الهاوية إلا إذا نسيت مبدأها وخانت عهودها . . عندئذ تتمرغ فى ماديات مظلمة تتيه فى بيداء هذه الحياة .

ولعل من أصدق الأمثلة على ذلك : قصة ثعلبة بن حاطب : الرجل الذى نسى مبدأه وخان عهده ، كان يلقب بـ « حمامة المسجد » ، وكفى بهذا اللقب شهادة له بحسن المواظبة وأداء الصلوات فى أوقاتها . .

ماذا حدث لتلك « الحمامة » . وماذا جرى لثعلبة ؟

رووا أنه أتى مجلساً من مجالس الأنصار ، فأشهدهم : لئن آتانى الله من فضله : آتيت منه كل ذى حق حقه ، وتصدقت منه ، ووصلت القرابة . . فمات ابن عم له ، فورث منه مالا ، فلم يف بشيء مما عاهد الله عليه ، فنزل قول الله تعالى : (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون . ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم ، وأن الله علام الغيوب) ؟ ! !

أرأيت إلى هذه العاقبة الوخيمة التى منى بها ذلك الذى نسى أصله . وخان عهد الله ؟ ! كان كل مطلبه الدنيا وما فيها من زخارف خداعة ، وبوارق لامعة ؟ . . أقبلت عليه فنسى ربه ! وبعد أن كان « حمامة » تأوى إلى بيت الله فتأنس بذكره : قصت أجنحتها ، فتمرغت فى أوحال الدنيا . . وهكذا الدنيا : إذا حلت : أوحلت ، وإذا كست : أوكست ، وإذا جلت : أوجلت ، وكم من ملك رفعت له علامات ، فلما علا : مات ! !

عظة وعبرة :

كذلك من الدروس التى يجب أن يعيها المجتمع فى الثبات على المبدأ : ألا يتنكر الإنسان لفضل الله عليه ، فيمنع النعمة أصحابها ، ويصير بذلك كنوداً آثماً .

لقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن ثلاثة من بنى إسرائيل : أبرص ، وأقرع ، وأعمى . أراد الله أن يبتليهم ، فبعث إليهم ملكاً ، فأتى الأبرص ، قال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ، ويذهب عنى الذى قذرنى الناس ، فمسحه ، فذهب عنه قذره ، وأعطى لوناً حسناً ، وجلداً حسناً ! فقال : أى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل ! فأعطاه عشراء ، وقال : بارك الله لك فيها . ثم أتى الأقرع فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ، ويذهب عنى هذا الذى قذرنى الناس ! فمسحه ، فذهب عنه ، وأعطى شعراً حسناً ، قال : فأى المال أحب ؟ قال : البقر ، فأعطى بقرة حاملا ، وقال : بارك الله لك فيها . ثم أتى الأعمى فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله على بصرى ، فمسحه ، فرد الله عليه بصره . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الغنم ، فأعطى شاة والداً . فأنتج هذان ، وولد هذا ، فكان لهذا واد من الإبل ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم ، ثم إنه — أى الملك — أتى الأبرص فى صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين قد انقطعت بى الحبال فى سفرى . فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن بعيراً أتبلغ به فى سفرى . فقال : الحقوق كثيرة ، فقال : كأنى أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس ، فقيراً فأعطاك الله ؟ قال : إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر ، قال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى « الأقرع » فى صورته فقال له مثل ذلك ، ورد عليه مثل ما رد الأول ، فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت .

ثم أتى « الأعمى » في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال ، فقال : قد كنت أعمى فرد الله على بصرى فخذ ما شئت ، ودع ما شئت ، فو الله لا أجهدك اليوم لشيء أخذته لله ! فقال : أمسك مالك ، فإنما ابتليتم ، فقد رضى عنك وسخط على صاحبيك ! » .

إن هذه تذكرة

إن من أعظم الوصايا الغالية التي وصى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « احفظ الله يحفظك . احفظ الله تجده تجاهك . تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة . إذا سألت فاسأل الله . وإذا استعنت فاستعن بالله » .

أجل يا سيدى يا رسول الله ! يا صاحب الثبات على مبدأ الحق ! يا من وصفت المؤمن الصحيح فقلت : « عجباً لأمر المؤمن : إن أمره كله لهو خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر : فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر : فكان خيراً له » .

وإنني إذ أبرهن على هذه المبادىء الحقيقية : أسوق هذه الدروس أمام المسلمين ليجدوا فيها العظة . إنها دروس على ثلاثة نفر وقعوا في شدة فنجاهم الإخلاص . لقد ثبتوا مع الله في طاعته ساعة الرخاء . فتعرف الله عليهم ساعة الشدة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار ، فدخلوه ، فانحدرت صخرة من

الجبل ، فسدت عليهم الغار ، فقالوا . إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم ، قال رجل منهم : اللهم إنه كان لى أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبق قبلهما أهلا أو مالا ، فنأى بى طلب الشجر يوماً ، فلم أرح عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما ، فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أوقظهما ، وأن أغبق قبلهما أهلا أو مالا ، فلبثت والقدح على يدى أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمى ، فاستيقظا فشربا غبوقهما ؛ اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئاً ، لا يستطيعون الخروج منه .

وقال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنة عم كانت أحب الناس إلى — وفى رواية كنت أحبها — كأشد ما يحب الرجل النساء ، فأردتها على نفسها ، فامتنعت منى حتى ألمت بها سنة من السنين ، فجاءتنى ، فأعطيتها عشرين ومائة دينار ، على أن تخلى بينى وبين نفسها ، ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها — وفى رواية ، فلما قعدت بين رجليها — قالت : إتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فانصرفت عنها ، وهى أحب الناس إلى وتركت الذهب الذى أعطيتها . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها .

وقال الثالث : اللهم إنى استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم ، غير رجل واحد ترك الذى . وذهب ، فثمرت أجره حتى كثرت منه

الأموال ، فجاءنى بعد حين ، فقال : يا عبد الله : أد إلى أجرى ، فقلت : كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق ، فقال يا عبد الله : لا تهزأ بى ، فقلت : لا أهزأ بك ، فأخذه كله ، فاستاقه ، فلم يترك منه شيئاً ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا مانحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، فخرجوا يمشون . (متفق عليه) .

* * *

هل تأملت أيها القارئ الكريم هذا الهدى النبوى ، والإرشاد المحمدى فى هذه الصورة البيانية الرائعة ؟ !

الإيمان وبناء النفوس

إذا كان الإيمان هو التصديق القلبى ، فلنعلم أن القلب هو محله . : بهذا نطق الكتاب الكريم ، قال تعالى : (أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان) ، وقال جل شأنه : (وقلبه مطمئن بالإيمان) ، وقال سبحانه : (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم) .

هل وقفت على الدور العظيم الذى قام به الإيمان فى بناء النفوس ؟ الإيمان ما رأيت الرجل الأول من هؤلاء النفر الثلاثة ينتظر والديه النائمين حتى يقوما فيشربا نصيبهما من اللبن ، ويؤثرهما على أولاده ! ولولا الإيمان ما قالت تلك الفتاة لابن عمها : اتق الله ولا تفض الخاتم

إلا بحقه . . هل كان هناك أحد يراها إلا الله ؟ ولولا الإيمان ما استجاب ابن عمها لندائها وخشى الله !

(إن الذين اتقوا إذ مسهم طائف من الشيطان تذكروا ، فإذا هم مبصرون) . . ولولا الإيمان مارد ذلك المالك أجر هذا الأجير بعد ما زاد ونما واستثمر .

لا عجب ! فإن الإيمان هو صانع المعجزات ، وبانى النفوس . فلولا الإيمان ما كانت الأمانة ، وما كانت خشية الله ، وما كان البر فى جميع صوره ، ولكنه سر من أسرار الله جلت قدرته ، يعمر به النفوس ، فتضئ وتشرق وتتلألأ وتتألق ، حتى تصير كالشمس فى ضحاها ، والقمر إذ تلاها ، والنهار إذا جلاها .

فاللهم أعط نفوسنا تقواها ، وزكها ، أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها .

من هذا كله نعلم أن القلوب هى المركز الأول الذى ينبنى عليه صلاح الفرد ، وينبنى على صلاح الفرد صلاح المجتمع ، وإنما يؤدى الإيمان ثمرته المرجوة ويؤتى أكله إذا كان مستشعراً عظمة الله وهيمنة سلطانه .

نعم : مستشعراً ذلك فى سره وعلانيته ، حيث ينطق الحديث الشريف بهذه الحكمة النبوية : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » والإيمان إذا حل قلباً

ملأه خشية ومعرفة . قال سبحانه : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم . وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعلى ربهم يتوكلون) . . نعم : لا يتوكلون على غيره ، لأنه وليهم : (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم . فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله . والله ذو فضل عظيم) .

والمؤمنون الصادقون إنما هم أعلام شامخة الرؤوس ، مشرئبة الأعناق ، لأنهم معتزون بالله : (من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ، إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه) ، كذلك يجعلون وجهتهم إليه سبحانه ، يعلمون أنه جل جلاله هو المتولى شؤونهم : (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) ، والمؤمنون الصادقون إذا سألوا أو استعانوا : سألوا الله ، وطلبوا العون منه ، لأنهم يعلمون أنه تعالى أقرب إلى العبد من حبل الوريد .

لذلك نلمح هذه الإشراقة المضيئة فى القرآن الكريم عندما يعرض للمسائل التى كانت توجه إلى رسول الله ﷺ طلباً للبيان والمعرفة . . فمن ذلك قول الله تعالى : (يسألونك عن الأهلة : قل هى مواقيت للناس والحج) ، (يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل) ، (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله) ، (يسألونك عن الخمر والميسر ؟ قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ،

وإثمهما أكبر من نفعهما . ويسألونك : ماذا ينفقون ؟ قل العفو) ، (يسألونك عن اليتامى ؟ قل إصلاح لهم خير) ، (ويسألونك عن المحيض ؟ قل هو أذى) ، (يسألونك عن الجبال ؟ فقل ينسفها ربى نسفاً) .

فأنت ترى فى الإجابة عن هذه الأسئلة تصديراً بكلمة « قل » ، إلا فى قوله تعالى : (وإذا سألك عبادى عنى ، فإنى قريب) فإنها قد خلت من كلمة « قل » ، فلم تقل « فقل إنى قريب » وإنما قالت « فإنى قريب » . . وفى ذلك من قوة القرب إلى الله ، وشدة علمه وإحاطته : ما يجعلنا نتوجه إليه دائماً فى السراء والضراء وحين البأس .

يارب : أنت الذى تهب الكثير ، وتجبر القلب الكسير ، وتغفر الزلات ، وتقول « هل من تائب مستغفر ؟ أو سائل أقضى له الحاجات » !

• • •

بهذا الإيمان : تبنى النفوس على الكرامة والعزة ، وتشيد صروحها على المعرفة والأمانة ، لأنها دائماً فى حال مراقبة أو مشاهدة : « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . وليس ثمة أدنى شك أن القلوب المؤمنة فى حالة ذكر لربها لا تعرف الغفلة . . أسمعت إلى نوح عليه السلام عندما اشتد به الكرب ، وزاد عليه عناد قومه ، واتهم بأنه مجنون ، وازدجر ، ماذا قال ؟ (فدعا ربه أنى مغلوب ،

فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر) .

ثم أرأيت إلى أيوب عليه السلام فى مرضه وشدته وكربه ومحنته يتوجه إلى خالقه فيقول : (مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) . فيكون الجواب : (فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم ، رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) ؟

ثم استمع إلى صاحب الحوت : يونس عليه السلام ، وهو فى بطن الحوت وفى ظلمة البحر وأعماقه ينادى ويهتف : (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) فتأتى الإجابة أسرع من البرق : (فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين) .

وها هو ذا زكريا عليه السلام يريد ولداً صالحاً وغلاماً رضياً ، فيتوجه إلى الله : (رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين) فتأتى الإجابة : (فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه) .

ثم اسمع إلى مؤمن آل فرعون — بعد ما بذل النصح والتوجيه ، وبين الطريق السوى — يقابل من قومه بما لا يليق بالناصحين المخلصين فيقول لهم : (فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد) فتأتى الإجابة والنجدة من رب العزة الذى يغيث الملهوفين : (فوقاه الله سيئات ما مكروا ، وحاق بآل فرعون سوء العذاب) .

ســورة النحــل

ووحدانية الله تعالى

أيها القارى الكريم : إذا أيقن العبد بربه ، وعرف حقه من الوحدانية الخالصة : استقرت نفسه ، وثبتت تجاه تيارات الحياة وعواصفها بكل بروقها ، ورعودها ، ورياحها ، ورمالها . . . ومن ثم ، فإن القرآن الكريم يفتح مدارسه المباركة ليوجه إلى القلوب أضواء الوحدانية ، ودلائل القدرة ، حتى يبنى النفوس بناء سليما ، ويشيدها على تقوى من الله ورضوان .

ولسوف نعرض الآن لبعض هذه المدارس فى سورة « النحل » ، لنرى كيف قامت الأدلة القاطعة والحجج الساطعة على وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته . .

ففى سورة « النحل » نطقت الأدلة بوحدانية الله وقدرته فى شتى المجالات الكونية والآفاقية والأنفسية شوامخ راسيات ، ورواسى ثابتات ، لا تحركها العواصف ، ولا تؤثر فيها الرياح العواصف :

استمع إلى القرآن الكريم وهو يبدأ هذه السورة بهذا الإنذار الذى يدعو كل عبد للاستعداد إلى لقاء الله . . فلقاء الله حق واقع . . ولتوكيد وقوعه : عبر عنه بلفظ الماضى ، كأنه قد وقع ، لأن الله لا يخلف

وعده : (أتى أمر الله فلا تستعجلوه ، سبحانه وتعالى عما يشركون) .
ثم يذكر بعد هذه الآية طريق الوحي الذى تتنزل به الملائكة ، وأنه كالروح ، يحيي الموات ، وينزل غضاً ندياً يتقاطر نوراً ورحمة ، ليعلم البشرية جمعاء أنه لا معبود بحق إلا الله ، فيقول سبحانه : (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا ، فاتقون) . ولقد صدقت يا سيدى يا رسول الله حين أعلنت قولك : « أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلي : لا إله إلا الله » .

وبعد ذلك تأخذ السورة الكريمة طريقها فى ذكر حشد من الأدلة المتنوعة والناطقة بالوحدانية والقدرة ، فيقول سبحانه : (خلق السماوات والأرض بالحق ، تعالى عما يشركون) ، فى هذه الآية المباركة يذكر أن العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه : مخلوق بالحق ، لا لهواً ، ولا باطلا ، ولا عبثاً ، ولا لعباً ، وإنما بالحق قامت السماوات والأرض : (وما كنا عن الخلق غافلين) ، وتعالى الله وجل جناب الحق أن يكون له شريك يناقشة الحساب ، فهو الواحد العادل الحكيم المريد .

وبعد ذكر العالمين : العلوى والسفلى ، ينتقل إلى خلق الإنسان فيقول سبحانه : (خلق الإنسان من نطفة ، فإذا هو خصيم مبين) .

فالإنسان سر الله فى أرضه ، ومعجزته التى حارت الأفكار فيها ، ولذا يقول أحد الحكماء عن الإنسان :

دواؤك فيك وما تبصر ... وداؤك منك وما تشعر
وأنت الكتاب المبين الذى ... بأحرفه يظهر المضمر
وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر !

(فلينظر الإنسان مم خلق ؟ خلق من ماء دافق !) . فماذا كان من الإنسان بعد ذلك ؟ قف يا أخى وقفة تدبر وإعمال فكر فى هذا النص المبين : (فإذا هو خصيم مبين) : يقول علماء اللغة : إن « إذا » حرف يفيد المفاجأة ، فهو بذلك يدل على أن خروج الإنسان من أصله اللائق به نحو الله : يعتبر أمراً غير مألوف ، فما كان ينبغى من الذى خلق من نطفة مهينة أن يفاجىء بالخصومة المبينة . . والخصومة لمن ؟ ! لخالقه ورازقه ومنشئه :

يا مدعى الكبر إعجاباً بصورته ... انظر خلاك ، فإن النتن تثريب
لو فكر الناس ماذا فى بطونهم ... ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
يا ابن التراب ومأكول التراب غداً ... أقصر ، فإنك مأكول ومشروب

يقول تقى الدين الحسن البصرى : عجبت لابن آدم : يتكبر على الأرض ، وهى التى تناديه بلسان حالها : يا ابن آدم : لا تتكبر على ظهرى ، لأنى غداً سأضمك فى بطنى ! كيف يتكبر ابن آدم وهو الذى أوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة ، وهو ما بين هذا وذاك يحمل فى بطنه العذرة ؟ تؤذيه بقه ، وتنتنه عرقه ، وتميته شرقه ؟ .

كيف تعلن الخصومة على الله يا ابن آدم وأنت الذى نزلت من مجرى البول مرتين : مرة وأنت ماء مهين من أبيك ، وأخرى وأنت طفل

من رحم أمك ؟ عليك أن تذكر هذا . ولا تنسين أنك حفنة من التراب فى البداية والنهاية . . (منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم . ومنها نخرجكم تارة أخرى) .

ولقد قلت لنفسى ، وأنا بين المقـــابر . .

هل رأيت الأمن والراحة إلا فى الحفائر ؟

فأشارت . . فإذا للدود عبث فى المحاجر

ثم قالت : أيها السائل . . إنى لست أدرى !

أنظرى : كيف تساوى الكل فى هذا المكان

وتلاشى فى بقايا العبد رب الصولجان

والتقى العاشق والقالى . . فما يفترقان

أبهذا ينتهى الأمر . . ؟ فقالت : لست أدرى !

أيها القبر : تكلم ، واخبرينى يا رمام

هل طوى أحلامك الموت ، وهل مات الغرام

من هو الميت : من عام ، ومن مليون عام ؟

أتمنى أننى أدرى . . لكن لست أدرى !

عالم الحيوان

وتنتقل بنا الأدلة من عالم الإنسان إلى عالم الحيوان المسخر له بإذن الله ، فيقول جل شأنه : (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرءوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون)

هذه أنواع من المخلوقات : اشتملت على فوائد عديدة ، لها جليل الأثر فى حياة الإنسان ، حتى أن القرآن الكريم — لكثرة ما فيها من فوائد أشار إلى بعضها : ففيها دفء فى أصوافها وأوبارها وأشعارها ، وفيها اللحوم التى تؤكل ، وفيها الركوب على ظهورها ، وحمل الأثقال التى لا طاقة لنا بحملها ، وفيها الفوائد المعنوية ، وهو ذلك الجمال فى رواحها وسروحها ، وفيها الزينة إذا وقعت العين على رؤيتها ، واستمعت الأذن إلى أصواتها من رغاء وثغاء . . وغير ذلك .

ولما كانت فوائدها لا تحصى ولا تستقصى ، فقد أجملها القرآن فى قوله : (ومنافع) ، ولك بعد ذلك أن تقول فى هذه العبارة ما شئت من ذكر تلك الفوائد ، مما يطول شرحه ، ويكثر ذكره . . سبحانك ربى :

عجز اللسان عن الثناء فإنه تتصاغر الأفكار دون مداه
من كان يعرف أنك الحق الذى بهر العقول ، فحسبه وكفاه

عالم الفلك

وينتقل بنا النظم الكريم إلى عالم الفلك ، فيقول جل شأنه : « وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » . وفى لفظ « التسخير » ما يدل على منتهى التذليل والتطويع ، دون ما مخالفة أو انحراف أو عصيان لأمر الله . . وفى قوله تعالى : (والنجوم مسخرات بأمره) إشارة عجيبة ، فإنها جملة إسمية مكونة من مبتدأ وخبر ، وأن مجيئها بهذه الصيغة لدليل على عظم عالم النجوم وما يحتويه من ثبات واستقرار فى النظام والإبداع . .

فماذا يقول علماء الفلك فى هذه العوالم الضخمة ؟ ماذا يقولون فى هذا الوجود الذى نعيش فيه ؟ أى حكمة تنطق بها كلماته ، وأى حقيقة تشير إليها آياته ؟ إن كلمات الوجود وآياته إنما تؤكد الحقيقة الكبرى ، ولم يصل العلم بعد إلى معرفة عدد وحدات هذا الوجود ، بل كل ما وصل إليه العلماء هو التأكد بأنه مهما تقدمت العلوم ، ومهما استحدثت وسائل البحث وأجهزة الكشف ، فإن العلم لم يصل إلى ذلك على سبيل القطع . فعدد النجوم والكواكب أمر يستحيل على العلماء أن يصل إلى حقيقته ، لأن ذلك فوق الإدراك ، وأكثر مما يتخيله العقل .

فى كل مرة يصل العلم عن طريق أجهزة أكبر دقة وأشد حساسية وأبعد رصداً ، إلى عدد يفوق سابقه زيادة لم تكن متوقعة . وما زال العلم يواصل أبحاثه فى استحداث وسائل جديدة للرصد .

ويحدثنا عن عدد النجوم حجة الفلك العالمى السير « جمس جينز » فى كتابه « الكون الغامض » فيقول : « ربما كان مجمــوع عدد النجوم التى فى الكون قريباً من مجموع عدد حبيبات الرمل التى تغطى شواطىء البحار فى العالم كله » .

ويقول كذلك فى كتابه : « النجوم ومسالكها » : « يكاد يكون من المؤكد أن هناك أكثر من ٦٠ نجماً مقابل كل رجل وإمرأة وطفل على وجه الأرض ، وقد يصل العدد إلى ضعف هذا ، بل ربما إلى ثلاثة أضعافه أو خمسة أمثاله » . .

ثم يضرب لذلك مثلا فيقول : « يجب أن نتصور مكتبة ضخمة تحوى على الأقل نصف مليون كتاب من الحجم المتوسط ، فجميع حروف الطبع فى هذه الكتب عددها مساو تقريباً لعدد نجوم السماء . وإذا كنا نطالع بسرعة صفحة فى الدقيقة مدة ثمانى ساعات فى كل يوم ، فلابد لنا من سبعمائة سنة لقراءة هذه المكتبة ، كذلك لو كنا نعد النجوم بسرعة ألف وخمسمائة نجم فى الدقيقة لاستغرقنا فى ذلك سبعمائة سنة .

أما الأرض التى نعيش عليها ، فهى أقل من نقطة على حرف فى مكتبتنا ذات النصف مليون مجلد ، أو على الأصح ، يجب أن نشبهها

بهباءة من التراب بين صفحتين فى أى كتاب من هذه الكتب فى هذه المكتبة .

فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للنجوم — وهى شموس تبلغ درجة حرارتها عشرات الملايين من الدرجات التى يقيسها الإنسان بأجهزته — فكيف يكون الحال بالنسبة لعدد الكواكب إذا ما عرفنا أن شمسنا هى واحدة من هذه النجوم ، وأرضنا أحد الكواكب التى تكون المجموعة الشمسية ؟ فإذا كان كل نجم ليس له سوى تسعة كواكب ، كما للشمس فقط ، فيا ترى : كم يكون عدد الكواكب ؟ و : كم يكون عدد الكواكب والنجوم » ؟ .

* * *

إن دراسة إشعاعات النجوم قد ألقت بعض الضوء على بعض وحدات هذا الكون ومركزها فى الوجود . فقد توصل العلم إلى معرفة أن الضوء يسير بسرعة ١٨٦ ألف ميل فى الثانية ، وقد اختار الفلكيون السنة الضوئية — التى تتكون من ٣٦٥ يوماً ، فى كل يوم ٢٤ ساعة ، وفى كل ساعة ٦٠ دقيقة ، وفى الدقيقة ٦٠ ثانية — لقياس أبعاد النجوم ، فإذا وصل إلينا ضوء نجم بعد ثانية واحدة كان بعده عنا ١٨٦ ألف ميل ، وقد وجد أن السدم التى ترصد أضواؤها على الأرض تنطوى معها حقيقة : هى أنها تبتعد عن الأرض بسرعات تتناسب مع أبعاد المسافات التى بينها وبين الأرض ، وأن آخر ما رصد من السدم : وجد

أنه يبتعد على الأرض بسرعة هائلة تبلغ ١٥ ألف ميل فى الثانية ، فمتى بدأ فى حركته ؟ ومتى يقف ؟ وإلى أين ينتهى ؟ ! !

وإن أقرب سديم إلى الأرض يصل إلينا ضوؤه بعد ٨٥ ألف سنة ضوئية . فعلى أى بعد يقع ؟ وأين أصبح الآن ؟ وتعتبر هذه الأرقام : الوحدات فى بداية الكون . . فقد أظهرت بحوث العلماء أن هنالك من السدم ما لم تستطع المجاهر القوية الكبيرة أن تتبين إشعاعها ، وأمر هذا الوجود ليس عجيباً فى عدد النجوم والكواكب والمسافات التى تفصل بينها فقط ، وإنما العجب والحيرة الذى ظل العلماء فى عجب وحيرة منه هو أمر إشراق النجوم . . إذ كيف يمكن أن تظل هذه النجوم ملايين السنين مشرقة ولا ينتهى إشراقها ؟ هل يرجع ذلك إلى الحرارة الشديدة الموجودة داخل النجوم ، والتى يرجح العلماء أنها تصل إلى عشرات الملايين من الدرجات الحرارية التى نعرفها ؟ . ولكن كيف لا تخمد ، حتى لو فرضنا أنها تفقد من حرارتها كل يوم درجة واحدة ، بل كل شهر ، حتى لو فقدت كل سنة كاملة درجة واحدة ، لكان يكفى ملايين السنين — التى مرت منذ القدم — أن تصبح النجوم باردة ، ولكن ظلت حرارتها كما كانت : ملايين الدرجات ، الأمر الذى بسببه حاول العلماء وضع نظريات تفسر ذلك ، فقيل إن السبب هو وجود عناصر مشعة فى النجوم ، ولكن لم يدم هذا الرأى كثيراً ، ثم استبدلت هذه النظرية بالانفجار الذرى ، ثم بالانفجار الآيدروجينى فى تبرير

حرارة الشمس وعدم تغيرها . وما زال العلماء فى أبحاثهم بسبيل إيجاد سبب أو آخر لإشراق النجوم .

° ° °

ثم إننا نوجه هذا السؤال إلى علماء الطبيعة ، وهو : كيف لا تفنى كتلة النجم ؟ إذ المعروف أن كل مادة ملتهبة تفقد من كتلتها بسبب الحرارة . .

سبحانك ربى ! يا من قلت : (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) .

يا من يحار الفهم فى قدرتك ، وتطلب النفس حمى طاعتك . تخفى عن الناس سنا طلعتك ، وكل ما فى الكون من صنعتك ! .

يا مبدع الكائنات ! يا من كل فعلك حكمة بالغة ! يا من قلت . وقولك الحق : (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ، فإذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون) ، ويا من قلت : (وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ، ذلك تقدير العزيز العليم) .

عالم النبات

ثم تنتقل بنا الآيات الكريمة بعد ذلك إلى الأرض وما بها من نبات وزروع ، وما احتوته فى بطنها من معادن مختلفات ، فيقول سبحانه : (وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون) ولقد جاء الأسلوب فى هذه الآية الكريمة بلفظ « ما » . الذى يدل على العموم والشمول ، للإشارة إلى ما فى الأرض من المعادن وأنواع النبات والذهب الأسود السائل . . وكل أولئك ملك لله تبارك وتعالى : (له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى) .

سبحانك ربى :

يامن تفرد بالبهاء وبالسنا فى عزه ، وله البقاء السرمد
يا من له وجب الكمال لذاته فلذاك ترفع من تشاء وتسعد

(هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) .

ما فى الوجود سواك رب يعبد كلا ، ولامولى سواك فيقصد
يا من له عنت الوجوه بأسرها ذلا ، وكل الكائنات توحد
أنت الإله الواحد الفرد الذى كل القلوب له تقر وتشهد

سبحانك يا من قلت : (الذى جعل لكم الأرض مهداً . وسلك لكم فيها سبلا . وأنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم ، إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) .

ويا من قلت : (فلينظر الإنسان إلى طعامه - أنا صببنا الماء صباً . ثم شققنا الأرض شقاً . فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلا . وحدائق غلباً . وفاكهة وأباً . متاعاً لكم ولأنعامكم) .

الحث على العمل وزيادة الإنتاج :

ولقد صدقت يا سيدى يا رسول الله وأنت الصادق الأمين عندما تحث البشرية أن تضرب فى مناكب الأرض تطلب الرزق ، فقلت : « التمسوا الرزق فى خبايا الأرض » ، ولئن كان علماء الا قتصاد قد أفاضوا فى الكلام عن الإنتاج والاستهلاك : فإن القرآن العظيم أشار إليهما فى آية كريمة حيث قال (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون) فمصدر الإنتاج قوله جل شأنه : (الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً) ، ومبدأ « الاستهلاك » تشير إليه الآية فى هذه العبارة : (فمنه يأكلون) .

تـأمل فى نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيـون من لجين شاخصات ... بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وفى عالم النبات أسرار عجيبة ، وحقائق علمية ، تجعل المتمعن فيها يخر لله ساجداً .

• • •

ثم ينتقل بنا النظم الكريم بعد ذلك إلى عالم البحار . . ذلك الخلق العظيم الذى جاء فى وصفه قول القائل : « هو خلق عظيم : الداخل فيه مفقود ، والخارج منه مولود ، والناس فيه دود على عود ، إذا هاج هز القلوب وأفزع النفوس » .

ويبين القرآن الكريم حال الناس فى البحر فيقول سبحانه : (حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين : لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين) هذا الخلق العظيم مسخر ومذلل ومنقاد ومذعن لخالقه الذى سخره . . يقول جل شأنه : (وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون) .

سبحانك ربى :

لما علمت بأن قلبى فارغ ممن سواك ، ملأته بهداك
وملأت كلى منك حتى لم أدع منى مكاناً خالياً لسواك ! !

فتأمل معى هذه العظمة الإلهية التى دبرت الأمور بإحكام ، ونظمت الكون بإتقان ، كيف استطاع الحيوان ، أن يعيش فى الماء وكيف تغذى على النباتات ، وماذا يقول العلم فى شرح العناية الإلهية فى عالم البحار ؟

إن من الحقائق العلمية التى أوضحتها التجارب العلمية : أن جميع المواد إذا ما تجمدت زادت كثافتها ، فيما عدا الماء ، فإنه المادة الوحيدة التى تناقض هذه الحقيقة ، إذ تقل كثافتها عند التجميد . . لذلك فإن أى كمية من الماء تتجمد فى البحار عندما يشتد البرد فإنها تطفو على السطح ، مخالفة بذلك القوانين العلمية التى تحكم المواد الأخرى ، وقد لا يتصور الإنسان — لأول وهلة إذا كان شأن الماء كالمواد الأخرى — كيف يكون الأمر ؟ فعندما يغوص الجليد فى البحار فإنه لا سبيل إلى إذابته ، كما تنخفض درجة حرارة المياه المحيطة به فتتجمد بالتالى ، فكيف تعيش الأسماك وتحيا النباتات التى فى البحار ؟ لذلك فإن الجليد عندما يطفو على الماء تتوافر له فرص الذوبان ، كما أنه يكون طبقة عازلة تحفظ درجة حرارة الماء الذى تحته فلا تصل البرودة الشديدة إلى الأسماك .

وهكذا تختلف القوانين العلمية ، وتتناقض الحقائق المرئية ، وليس من هدف إلا قيام الحياة وتدبير أمورها وتيسير سبلها :

أليس فى ذلك الرد — أبلغ الرد — على من يقول بميكانيكية الحياة ؟

فواعجباً : كيف يعصى الإله ... بل كيف يجحده الجاحد ؟
وفى كل شىء له آيـة ... تدل على أنه الواحـد ؟

ماذا يقول المكابرون فى هذه الآيات الناطقة بالتدبير الشامل والنظام المحكم ؟ من الذى دبر وأنشأ ؟ ومن الذى خلق وأوجد ؟ إنه الله القائل : (وخلق كل شىء فقدره تقديراً) ، والقائل : (وكل شىء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة ، الكبير المتعال) ، والقائل : (إنا كل شىء خلقناه بقدر) .

هل تستطيع الطبيعة الصماء ، وهل تقدر الصدفة العمياء أن توجد وأن تدبر ، وأن تحكم الخلق أو تنظم ؟ . (سبحانك ! هذا بهتان عظيم) .

يا من قلت وقولك الحق : « وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً . الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى ، وكانوا لا يستطيعون سمعاً » :

ويا من قلت : (وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) . ويا من قلت : (وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) .

إن الوجود كله صفحة متقنة الإبداع ، تقر وتشهد بالحق أن لها خالقاً مبدعاً ، حكيما مريداً : « لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير . قد جاءكم بصائر من ربكم : فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ) .

* * *

وبعد أن أخبر القرآن الحكيم عن عالم البحار : انتقل بنا بعد ذلك إلى عالم الجبال ، وما فى الأرض من أنهار وسبل وعلامات للاهتداء فى

متاهات الرحاب الواسعة . قال جل جلاله : « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون ٥ وعلامات . وبالنجم هم يهتدون » .

إنها عمارة الكون . . تنطق بالقول السديد ، والبرهان الرشيد :

سبحان من أحيا قلوب عباده بلوائح من فيض نور هداه
فالعارفون مشاهدون لفضله مستأنسون بذكرهم إياه

من الذى أودع هذه العلامات للارشاد فى الصحارى الشاسعة والوهاد المترامية ؟ إنه الله ، جل فى علاه !

° ° °

وبعد سوق هذه الأدلة ووضوحها ونظمها فى هذا المسلك الرائع والإتقان البديع ، يسوق القرآن هذا السؤال لكل عامل بصير ، وليس المقصود بالسؤال استفهاماً . . فإن الاستفهام محال فى حق الله ، إذ هو طلب الفهم ، وهو يفيد الجهل بالشيء المستفهم عنه ، وجل جناب الحق أن يعزب عنه شيء فى الوجود كله ، إنما المقصود بالاستفهام هنا فى قوله تعالى : (أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون) : هو الإنكار الذى يفيد النفى : أى ليس من يخلق كمن لا يخلق ، فهذا لمجرد التذكرة ، وعلى كل عاقل أن يفهم ذلك ويتدبره ، فإن ذلك من الأمور البديهية ، ومن الشئون الواضحة الجليلة ، كالشمس فى ضحاها وهى تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية .

جلت حكمتك يا حكيم ، أنت الخالق المبدع المصور ، لا شريك لك في ملكك :

يا حبيب القلوب : هب لي رضاك وارحم اليوم مذنباً قد أتاك
ويا إلهي وخالقي ومرادي قد أبى القلب أن يحب سواك

* * *

أخي القارىء الكريم :

وهكذا طفت بعقلك وفكرك ووجدانك وقلبك في هذه الرياض الباسمة : رياض الكتاب العزيز . .

انتقلت من عالم السموات والأرض إلى عالم الإنسان ، ومن عالم الإنسان إلى عالم الحيوان ، ثم إلى عالم النبات ، ثم إلى عالم الفلك ، ومنه إلى ما في الأرض من مكنون الخزائن ، ثم إلى عالم البحار ، ومنها إلى عالم الجبال والأنهار ووسائل الإرشاد في المتاهات . .

نعم الله على خلقه ! !

ولما طال تعداد النعم وذكر هذه المخلوقات . . قال القرآن الكريم بعد ذلك : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الله غفور رحيم » .

إن الذى أوجد هذه الكائنات العظمى ، لابد أن يكون متصفاً بالعلم الشامل الكامل ، ولذا جاء بعد هذه الآية قوله جل شأنه :

« والله يعلم ما تسرون وما تعلنون » .

ولقد بلغ من جهل الكافرين أن قال بعضهم لبعض : من أراد أن يتكلم فى شأن محمد (صلى الله عليه وسلم) فليكن ذلك سراً حتى لا يسمع إله محمد ما نقول فيخبره به ! ! . فماذا كان الموقف ؟ .

لقد هبط سفير الأنبياء جبريل عليه السلام بقول الله تبارك وتعالى : « وأسروا قولكم أو اجهروا به ، إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير » ؟ !

أخا الإسلام :

الله يرى كل ما تضمر ويعلم ما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الناس لم تستطع خداع من يطوى ومن ينشر

وحيث قد ثبت أن الله هو الخالق وحده ـ العالم بكل شيء ، فإن غير الله لا يخلق . لأنه لا يملك الإيجاد من العدم . . ومن هنا فقد عقب الكتاب الكريم على ذلك بقوله : (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً ، وهم يخلقون ، أموات غير أحياء ، وما يشعرون أيان يبعثون ،) . .

الكون ، وقدرة الله

الكون قسمان :

كون زمانى .

وكون مكانى :

فالكون الزمانى .

هو الدنيا والآخرة

والكون المكانى :

هو السموات والأرض .

وإذا كان الله تعالى قد تحدى العالم أن يأتى بسورة من مثل القرآن الكريم . فقد تحداهم بالكون المكانى أن يخلقوا ذبابة . حيث يقول سبحانه : (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له،وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب) .

العلم الحديث

ووحدانية الله تعالى

يا من يرى مد البعوض جناحه　　في ظلمة الليـــل البهيم الأليل
ويرى نياط عروقها في نحرها　　والمخ في تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما يرى ما دونها　　في قاع بحر زاخر متجندل

لقد كنت أعجب وأنا أقرأ تلك الأبيات للإمام الزمخشري وهو يناجي ربه فأقول : سبحان الله ! ما هي تلك البعوضة التي لها عروق ، ونحر ، ومخ ، وعظام ! إلى أن قرأت هذا البحث العلمي الذي يقوم به البروفيسور « أردين ليا » الأستاذ بجامعة جورجيا الأمريكية . فاسمع إليه ، يقول الخبر بالحرف الواحد :

« يقوم الدكتور « أردين ليا » من جامعة جورجيا بتجارب جراحية على مخ البعوضة تحت الميكروسكوب . مستخدماً أدوات جراحية دقيقة ، مثل التي يستعملها صانعو المجوهرات ، وذلك لمساعدة العلماء في السيطرة على أخطار هذه الحشرات ، ولا تستغرق الجراحة التي يقوم بها الدكتور « ليا » أكثر من ٥ دقائق ، وبمجرد انتهاء أثر البنج يستطيع « المرضى » من البعوض : الطيران .

ويقوم الدكتور « ليا » — أستاذ علم الحشرات وطباعها — بدراسة نظام الهرمونات والتكاثر لدى إناث البعوض الذى ينتشر فى المستنقعات . وبمعرفة الطريقة التى تعمل بها الغدد الصماء فى البعوض يمكن أن تكون عاملا هاماً فى مساعدة العلماء الذين يؤمنون بأن منع تكاثر الحشرات هو أفضل السبل للسيطرة عليها . وأثناء العملية يقوم الدكتور « ليا » بإزالة الخلايا التى تعرف باسم خلايا « إفرازات الأعصاب » من مخ البعوضة ؛ وكذلك بعض الغدد من الرقبة ، وقد وجد الدكتور « ليا » أن البعوضة لا يمكنها بعد ذلك وضع البيضة » .

فإذا كان هذا شأن البعوضة التى ضرب القرآن بها مثلا فقال : (إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما ، بعوضة فما فوقها) ، فما بالك بهذه الخليقة وما فيها من أسرار حارت فيها عقول الباحثين ، ووقفت حيالها — واجمة — عبقريات العباقرة والمفكرين ؟ ! .

• • •

وهكذا أخذت الأدلة تتجلى فى تؤدة وثبات كأنها الجبال الشم والرواسي الشامخات ، إلى أن وصلت إلى حقيقة الحقائق وسر الأسرار . ألا وهى قضية التوحيد ، فقال سبحانه بعد ذلك : (إلهكم إله واحد) ؛ فهذه القضية مركز الدائرة الذى تسبح حوله الأدلة ، الباهرة والبراهين الباصرة . . إنها قضية لا إله إلا الله . . فمن كان آخر كلامه لا إله إلا الله : دخل الجنة .

لا إله إلا الله أخلو بها وحدى ، لا إله إلا الله أفنى بها عمرى . لا إله إلا الله يغفر بها ذنبي . لا إله إلا الله أدخل بها قبرى ، لا إله إلا الله ألقى بها ربى .

* * *

خطرات فى الحب الإلهى

الكل فى بحر حبه تاهوا	وقد تفانوا فى سر معناه
وصححوا العقد مخلصين له	بقولهم : لا إله إلا هو
يا معشر الذاكرين كلكم	قولوا معى : لا إله إلا هو
وراقبوا من يعمكم كرماً	بفضله : لا إله إلا هو
فالكون قد فاح بشره عبقاً	بذكره : لا إله إلا هو
والعرش تسبيحه له أبداً	سبحان من لا إله إلا هو
وكل ما فى السماء من فلك	تسليحه : لا إله إلا هو
وكل ما فى الجبال من عظم	تسبيحه : لا إله إلا هو
وكل ما فى الرياض من شجر	تسبيحه : لا إله إلا هو
وكل ما فى البحار من خلق	تسبيحه : لا إله إلا هو
وكل ما فى الوجود من بشر	تسبيحه : لا إله إلا هو
وكل ما فى الزمان من عجب	أعجبه : لا إله إلا هو
وكل شىء تراه من حسن	أحسنه : لا إله إلا هو
وكل شىء يلوح من صور	فزينته : لا إله إلا هو
وكل أهل العلوم قد علموا	بأنه : لا إله إلا هو

وكل أهل العقـول قد فهموا بأنه : لا إله إلا هو
والإنس والجن كلهم شهدوا بأنه : لا إله إلا هو
والرعد والبرق إذ يسبحه بقوله : لا إله إلا هو
وكل من ضل عن طريق هدى دليـله : لا إله إلا هو
وكل من يشتكى أذى سقم شفاؤه : لا إله إلا هو
ومن أتـــاه بالذل مفتقراً غناؤه : لا إله إلا هو
ومن أتى بـائساً ومفكـراً فجبره : لا إله إلا هو
يا غـارقاً فى بحـــار غفلته : انهض ، وقل لا إله إلا هو
يا قـــوم لا تغفلوا عن ذكره بلا إلـه إلا هـــو
كيف تنام العيـــون عن ملك سبحانه : لا إله إلا هو
هـــو الإله العظيم قـــدرته سبحانه : لا إله إلا هو
يا فوز من مات وهو معتقد يشهد أن لا إله إلا هو
ســـبحانه ما أعم رحمتـه بمذنب تاب من خطاياه !

* * *

وقفة تأمل

اقرأ يا أخي هذه القضية مرة ومرة : (إلهكم إله واحد) ، ثم اقرأ تعقيب الكتاب العزيز عليها حيث يقول جل شأنه : (فالذين لا يؤمنون بالآخرة : قلوبهم منكرة ، وهم مستكبرون . لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون . إنه لا يحب المستكبرين) .

يقول العلامة ابن كثير فى تفسير هذه الآية الكريمة : يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك ، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك : (أجعل الآلهة إلها واحداً ؟ إن هذا لشيء عجاب) وقال تعالى : (وإذا ذكر الله وحده : اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه : إذا هم يستبشرون) ، وقوله : (وهم مستكبرون) : أى عن عبادة الله ، مع إنكار قلوبهم لتوحيده ، كما قال : (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) ؛ ولهذا قال ههنا : (لا جرم) . أى حقاً : (أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) . أى وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء : (إنه لا يحب المستكبرين) اهـ .

° ° °

وبنظرة فاحصة يتبين لنا أن الأدلة على وحدانية الله واضحة لا غموض فيها ، جلية لا غبار عليها ، وأن الذين يقفون منها موقف الإنكار أو

التشكك : إنما ذلك راجع لمرض فى قلوبهم ، فقلوبهم منكرة جاحدة ، مظلمة عابسة :

ماضر شمس الضحى فى الأفق ساطعة ألا يرى نورها من ليس ذا بصر ؟

وقد قيل :

وما ضر الورود وما عليها إذا المزكوم لم يطعم شذاها

وقيل أيضاً :

ما يضر البحر أمسى زاخراً أن رمى فيه غلام بحجر ؟

فاللهم أزل عن القلوب حجب الغفلة ، وبصرها بأمر دينها ودنياها .

* * *

وإن من أمراض هذه القلوب المنكرة : أنها تجحد حقائق الأشياء دون أن تبحث وتفكر ، وتمحص وتتدبر ، قال سبحانه : « وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : أساطير الأولين » . . بكل هذه السهولة ، وبمنتهى التبجح : تنكر الحقائق .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

حقاً . .

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا

ولا يظلم ربك أحداً

ما عاقبة هؤلاء فى الدنيا والآخرة ؟ أما فى الآخرة : فكما قال مولانا : « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يزرون » !

وأما عاقبتهم فى الدنيا . فإنها كعاقبة الذين من قبلهم : تدمير وخسف ، قال سبحانه : « قد مكر الذين من قبلهم ، فأتى الله بنيانهم من القواعد ، فخر عليهم السقف من فوقهم . وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) .

هذه عاقبة التكذيب والخيانة ، والكفر والجحود : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة . يأتيها رزقها رغداً من كل مكان . فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه ، فأخذهم العذاب وهم ظالمون . فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً . واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون » .

وموقف هؤلاء المنكرين فى الآخرة أيضاً : خزى وتأنيب . قال جل شأنه : (ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم) ؟ عندئذ لا يستطيعون جواباً ولا تفسيراً .

فمن الذين يقولون كلمة الحق الفاصلة ؟ إنهم أهل العلم ، قال جل شأنه : (قال الذين أتوا العلم إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين • الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فألقوا السلم : ما كنا نعمل من سوء ، بلى ، إن الله عليم بما كنتم تعملون) .

وبعد كل هذا : فإلى أين ينتهى المطاف ، وأين المستقر ؟ قال سبحانه : (فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فلبئس مثوى المتكبرين) .

• •

وبعد هذا المشهد من مشاهد القيامة ، وبعد أن تقرأه بخشية وخشوع : قارن بين أصحاب القلوب المنكرة ، وبين أهل التقوى .

فأصحاب القلوب المنكرة إذا قيل لهم : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : أساطير الأولين ، وأصحاب التقوى : موقفهم على النقيض من ذلك ، قال تبارك اسمه وتعالى جده : (وقيل للذين اتقوا : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : خيراً) . !

شتان ثم شتان ، وهيهات ثم هيهات بين القولين : بين « أساطير الأولين » وبين كلمة « خيراً » ، كما أنه شتان بين العاقبتين : فعاقبة المتكبرين : « فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها) . هذا فى الآخرة ، وفى الدنيا : (فأتى الله بنيانهم من القواعد ، فخر عليهم السقف من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) .

وأما عاقبة المتقين فى الدنيا والآخرة ، فكما قال سبحانه وتعالى :

(للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين ، جنات عدن يدخلونها ، تجرى من تحتها الأنهار ، لهم فيها ما يشاءون ، كذلك يجزى الله المتقين) .

* * *

فضل الله على عباده

ومن المواقف الطيبة التى يقف عندها العقل عاجباً فى هذه السورة (سورة النحل) إن الله سبحانه شاء — بمنه وفضله — أن يعطى الجزاء للمؤمنين فى الدنيا والآخرة ، وقد جاء ذلك فى هذه السورة فى أربعة مواضع هذا الموضع السابق أولها ، والموضع الثانى : قوله جل شأنه : (والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا : لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر ، لو كانوا يعلمون) ، والموضع الثالث : قوله جل جلاله : (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) : والموضع الرابع : قوله تعالى فى حق الخليل إبراهيم : (وآتيناه فى الدنيا حسنة ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) .

سبحانك اللهم ! أنت ولى المتقين ، وناصر المؤمنين .

ثم قارن بعد ذلك يا أخى بين حالتى الوفاة التى يصفها الكتاب العزيز :

فيقول فى حق المنكرين : (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، فألقوا السلم ، ما كنا نعمل من سوء) . ويقول فى حق المتقين :

(الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون : سلام عليكم ، ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) .

نظرات . . وعبر

وبعد هذه المقارنات بين المنكرين والمتقين ، نواصل هذه النظرات فى « سورة النحل » ، لتسجل الأدلة الباهرة والبراهين الباصرة على وحدانية الله تعالى ، حيث ينتقل بنا النظم الكريم بعد ذلك إلى موقفين من أعظم المواقف الشاهدة على الوحدانية والقدرة . . يقول سبحانه : (وإن لكم فى الأنعام لعبرة : نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين) .

والمراد بالأنعام هنا : الإبل ، والبقر ، والغنم .

وقوله : « من بين فرث ودم لبناً خالصاً » . أى يتخلص اللبن : بياضه ، وطعمه ، وحلاوته ، من بين فرث ودم فى باطن الحيوان . فيسرى كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء فى معدته ، فيصرف منه دم يجرى فى العروق ، ولبن يجرى فى الضروع ، وبول فى المثانة ، وروث إلى المخرج ، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه : لا فى لونه ، ولا طعمه ، ولا ريحه .

فمن الذى ميز بين هذه الأشياء الأربعة : الدم ، واللبن ، والبول ، والروث ، وجعل لكل منها مسلكاً خاصاً : أهى الطبيعة الصماء ،

أم الصدفة العمياء ؟ ؟ كلا ! ! إنها مصانع الألبان ، من طراز « كن فيكون » : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون ، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون) .

وقوله : (لبناً خالصاً سائغاً للشاربين) : أى لا يغص به أحد ، مع اشتماله على عناصر غذائية ، ولذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أكل طعاماً يدعو فيقول : « اللهم بارك فيما رزقتنا ، وزدنا خيراً منه » ، أما إذا شرب اللبن فكان يقول : « اللهم بارك لنا فيما رزقتنا ، وزدنا منه » .

من أجل ذلك كانت الهدية التى قدمها الأمين جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج : هى اللبن ، وبعد ما شربه قال له الأمين عليه السلام : لقد اخترت الفطرة : أى الصفاء الذى لا تشوبه كدرة .

وينتقل بنا النظم الكريم من « مصانع الألبان » إلى « مصانع العسل » الذى يخرج من بطون النحل، قال سبحانه وتعالى : (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ، ومن الشجر ، ومما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون)

ونحن هنا نجمل القول فى هاتين الآيتين الكريمتين فى أربعة مباحث :

المبحث الأول :

كلام المفسرين عنهما .

المبحث الثانى :

ذكر الحقائق العلمية فى كيفية بناء النحل لبيوته .

المبحث الثالث :

تقرير الطب الحديث فى الشفاء الذى أودعه الله فى شراب النحل .

المبحث الرابع :

الرد على أعداء الإسلام الذين وقفوا من آية الشفاء موقف المعاند المكابر . فنقول ، وبالله التوفيق .

المبحث الأول

كلام المفسرين عنهما

قال علماء التفسير فى هاتين الآيتين كلاماً له وزنه وقيمته العلمية . قالوا : المراد بالوحى هنا : الإلهام والهداية والإرشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوى إليها ، ومن الشجر ومما يعرشون . ثم إن هذه البيوت محكمة فى غاية الإتقان ، حيث بنيت على نظام المسدسات ، وهى أشكال هندسية بديعة ، بحيث لا يكون فى بنائها خلل ، ثم أذن لها تعالى إذناً قدرياً تسخيرياً أن تأكل من كل الثمرات ، وأن تسلك الطرق التى جعلها الله تعالى مذللة لها ، أى مسهلة عليها ، حيث شاءت ، من هذا الجو العظيم ، والبرارى الشاسعة ، والأودية ، والجبال الشاهقة ، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها ، لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة ، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل . فتبنى الشمع من أجنحتها ، وتخرج

العسل من بطونها ، وتبيض الفراخ من أدبارها ، ثم تصبح إلى مراعيها ! !

وقوله تعالى : (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس) ما بين أبيض وأصفر وأحمر ، وغير ذلك من الألوان الحسنة ، على اختلاف مراعيها ومأكلها منها . وقوله : (فيه شفاء للناس) أى فى العسل شفاء للناس : أى من داءات يتعرضون لها .

قال بعض من تكلم عن الطب النبوى : لو قال فيه الشفاء للناس : لكان دواء لكل داء ؛ ولكنه قال : فيه شفاء للناس ، أى يصلح لكل أحد من أدواء باردة ، لأنه حار ، والشيء يداوى بضده .

وقد ثبت فى الصحيح أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن أخي استطلق بطنه ، فقال : « اسقه عسلا » ، فذهب فسقاه عسلا ، ثم جاء فقال يا رسول الله سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقاً ، قال : « اذهب فاسقه عسلا » فذهب فسقاه عسلا ، ثم جاء فقال : يا رسول الله ما زاده إلا استطلاقاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صدق الله وكذب بطن أخيك ، اذهب فاسقه عسلا ! ! » فذهب فسقاه عسلا ، فبرىء .

قال بعض العلماء فى الطب تعليقاً على هذا الحديث الشريف : كان هذا الرجل عنده فضلات ، فلما سقاه عسلا — وهو حار — تحللت . فأسرعت فى الاندفاع ، فزاده إسهالا ، فاعتقد الأعرابى أن هذا يضره ، وهو مصلحة لأخيه ، ثم سقاه ؛ فازداد التحليل والدفع ، ثم سقاه ؛ فكذلك ، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن ، استمسك

بطنه ، وصلح مزاجه ، واندفعت الأسقام والآلام ، ببركة إشارته صلى الله عليه وسلم

وقد روى البخارى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعجبه الحلواء والعسل ، وفى هذا إشارة إلى ما فى العسل من القيمة الغذائية الكاملة ، كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام ابن ماجه فى سننه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : « عليكم بالشفاءين : العسل والقرآن » .

وآية الشفاء فى العسل : قوله تعالى : (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس) .

وآيات الشفاء بالقرآن . قوله تعالى : (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور) ، وقوله تعالى : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) وقوله جل شأنه : (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) .

وروى ابن ماجه أيضاً أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من لعق العسل ثلاث غدوات فى كل شهر لم يصبه عظيم من البلاء » .

ثم يقول المفسرون فى ختام هذه الآية : (إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) أى أن إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة ، إلى السلوك فى هذه الشواهق من الجبال ، والباثقات من الأشجار ، والاجتناء من سائر الثمار ، ثم جمعها للشمع والعسل — وهو من أطيب الأشياء —

لآية لقوم يتفكرون فى عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها ، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر ، الحكيم العليم ، الكريم الرحيم .

* * *

المبحث الثانى

ذكر الحقائق العلمية فى كيفية بناء النحل لبيوته

إن مملكة النحل عجيبة الصنع ، محكمة الإتقان . . ولقد أراد الله سبحانه وتعالى توجيه نظر العباد إلى بيوت النحل – التى تعتبر أحسن مثل لهندسة المبانى وتعاون أفراد النحل . . فيقول عز من قائل فى سورة « النحل » :

(وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ، ومن الشجر ، ومما يعرشون) . وقد أثبت التاريخ أن النحل اتخذ بيوته فى الجبال أولا ، ثم فى الأشجار ثانياً ، ثم فى الأعراش والخلايا بعد ذلك .

ويقول العالم « موريس مترلنك » فى كتابه « حياة النحلة » : إنه سواء أذهب النحل إلى حيث شاء أم وضعه النحال فى مكان جديد ، فإن العدد الأكبر منه يؤلف من نفسه – وهو متلاحق متماسك – ستاراً مثلثاً كثيفاً أشبه بمخروط مقلوب رأسه ، ويظل مدة من الزمن تتراوح بين ١٨ ، ٢٤ ساعة على هذا الحال ، تظهر بعدها طبقات بيضاء شفافة تحت معدة كل نحلة ، وتكون جماهير غيرها قد تولت كنس الأرض وإزالة القش وكافة المواد الغريبة ثم مسحها وسد الشقوق . . وفجأة

نرى نحلة من المخروط المقلوب وقد انفصلت عن البقية وصعدت إلى أعلى موضع من البيت تنزع بفمها إحدى طبقات الشمع المتدلية من بطنها ، وبأرجلها تدحوها وتنشرها وتلصقها بأعلى نقطة فى البيت ، وبهذا تضع حجر الزاوية فى مدينة النحل ، ثم تغادر المكان حيث تحل غيرها مكانها لتضيف إلى حجر الزاوية قطعاً من الشمع ، ومتى بلغت سمك هذه القطع الشمعية حد الكفاية ، خرجت نحلة من الجماعة تختلف عنها شكلا وتدل هيئتها على أنها مهندس قدير ، وهى لا تنتج شمعاً ، فتأخذ فى الطيران والوقوف ، ثم الطيران والوقوف ، فتحدد فى ذلك مواقع الغرف التى يقوم ببنائها العمال .

وينشئ النحل أربعة أنواع من الغرف : هى الغرف الملكية ، وغرف الذكور ومخازن الطعام ، والغرف الصغيرة التى هى مهد للعمال والمخازن العادية — وهى تشغل أربعة أخماس الخلية — وغرف الانتقال للوصول بين الغرف وبعضها ، وكل غرفة عبارة عن أنبوبة مسدسة الأضلاع على قاعدة هرمية .

ويقول الدكتور « ريد » إنه لا يوجد سوى ثلاثة أشكال ممكنة للغرف تجعلها كلها متساوية ومتشاكلة ، دون أن تكون هناك مسافات بينها لا فائدة منها ، وهذه الأشكال هى : المثلث المتساوى الأضلاع ، والمربع ، والمسدس المنتظم . والمسدس أصلحها ، وهو ما يعمله النحل .

وقد عين « مارك لورين » الزاوية التى تلتقى عندها السطوح للحصول

على أعظم اقتصاد . فوجد أنها نفس الزاوية التى يلتقى عندها فعلا سطح أرض غرفة النحل .

ويقول « مترلنك » : ونحن إذ نتأمل أسرار الخلية ، لا يسعنا إلا أن نطل على ذكر آية من آياتها ، هى الحجرة المسدسة ، التى تكاد تبلغ درجة الكمال المطلق ، فلا تستطيع أن تزيد عليه كل عبقريات البشر مجتمعة أية تحسينات : « ولو أن أحداً من عالم آخر هبط إلى الأرض وسأل عن أكمل ما أبدعه منطق الحياة ، لما وسعنا إلا أن نعرض عليه مشط الشمع المتواضع » ! ! .

• • •

خبرنى بربك فى أى الجامعات تخرجت هذه المخلوقات العجيبة ؟ وفى أى أقسام المعمار تخرج عباقرة المهندسين فى النحل ؟ وعلى أى الأساتذة درسوا علم التفاضل والتكامل ، ليخرجوا لنا أعظم إنتاج بأقل تكاليف لازمة ؟ ومن الذى ألهمهم إلهام الغريزة أن يشيدوا تلك البيوت العجيبة : أهى الطبيعة الصماء ، أم الصدفة العمياء ؟ ! !

والله ما هذا ولا ذاك ، وإنما هو الله العزيز الحكيم : (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ، ومن الشجر ، ومما يعرشون) .

يقولون : أين الله ، أين عجائبه ؟ وذا الكون سفر ناطق ، وهو كاتبه
يشكون ، والإيمان ملء قلوبهم ويبدون ما كل العقول تكذبه !
عجائب ربى فى الآنا كثيرة ولكن جهل المرء - لاشك - غالبه !

إن بيوت النحل إنما هي مصانع من طراز « كن فيكون » أبدعتها يد القادرة ، لتكون آية لقوم يتفكرون .

* * *

المبحث الثالث

ما يقرره الطب الحديث فى الشفاء بالعسل النحل

يقول عز من قائل : (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه . فيه شفاء للناس) .

اعلم يا أخا الإسلام أن هذا المشهد القرآنى الذى نحن بصدده — من أول قوله تعالى : (وإن لكم فى الأنعام لعبرة) إلى قوله تعالى : (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه) — قد اشتمل على ثلاثة أنواع من الأغذية :

أولها : غذاء حيوانى وهو اللبن .

ثانيها : غذاء نباتى ، وهو المتمثل فى قوله تعالى : (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ، إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون) . وليس المراد « بالسكر » هنا : المادة المحرمة ، كما ذهب البعض إلى ذلك ، لأن هناك فرق بين السكر (بضم السين وسكون الكاف) وبين السكر (بفتحتين على السين والكاف) ، والذين ذهبوا إلى أن المراد « بالسكر » فى الآية الكريمة هى المادة المسكرة : ذهبوا إلى أن هذه الآية قد نسخت بتحريم الخمر ، ولكن النظرة الثاقبة تفيد أنها آية امتنان وتفضل

من الله . لا دخل لها بالسكر الذى يذهب بالعقول . وبدليل أن الله جل شأنه عطف عليها بقوله (ورزقاً حسناً) ، وبدليل أن ختام الآية جاء بـ : (إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون) .

فكيف يكون السكر آية للعقلاء ؟

وبدليل أن الآية توسطت آيتين اشتملتا على أعظم النعم ، هما : اللبن ، والعسل ، فلو لم تشتمل على نعمة مماثلة لهما فى الغذاء الحلال : ما توسطت هذا العقد الفريد .

وأخيراً : فهناك فرق بعيد بين السكر والسكر ، فلا داعى لأن نقول إن الآية قد نسخت وأن المراد « بالسكر » هو « السكر » ، إذ أن الفرق بينهما بعيد . حيث أن المراد بالسكر (بفتح السين والكاف) هو المادة السكرية العظيمة الموجودة فى ثمرات النخيل والأعناب .

ثالثها : أنواع من الأغذية : غذاء حشرى ، وهو عسل النحل ، فماذا يقول الطب فى هذا الأخير ؟

إن عسل النحل فوق كونه غذاء ، فإنه أيضاً فيه شفاء .

وفى قوله تعالى : (مختلف ألوانه) فإن هناك عسلا أصفر ، وآخر أحمر ، وثالث غامق : كعسل مدغشقر .

ثم أن العسل يحتوى على :

١ ــ نوعين من السكر الجلوكوز والليفيلوز .

٢ ــ أصباغ طبيعية ، وأصباغ النشا .

٣ ـ فيتامينات ا ، ب ، وفيتامين ج موجود ، ومركز بكمية كبيرة .

٤ ـ بعض المعادن : كالكالسيوم ، والبوتاسيوم ، ثم حامض النحل .

٥ ـ بيض النحل ، الذى يكاد لا يرى من صغر حجمه .

العسل النحل وفوائده

١ ـ المواد السكرية

العسل كغذاء :

أهم ما فى العسل ، نوعا السكر المذكوران ، وهذان النوعان لا يحتاجان لهضم ، كسكر القصب ، بل يمران من القناة الهضمية إلى الدم بدون تغير ، وهذه ميزة كبرى للعسل للنحل .

والسكر من ضروريات الحركة : كضربات القلب ، والتنفس ، والحركة العادية . ويمكن للإنسان أن يقوى بطريقة أسرع لو غذى بهما : سواء بالفم ، أو حقناً فى الوريد . . فى الحميات ـ مثلا ـ يصبح غذاء المريض سهل الامتصاص إذا حلى شراب الليمون بالعسل ، أو اللبن بالعسل ، لأن الجهاز الهضمى يتلبك أثناء الحميات ، فلا داعى لإشغاله بتحليل سكر القصب إلى جلوكوز أو ليفيلوز .

وفى حالات المرض بالبول السكرى ، فإن تحلية السوائل بالعسل أقل ضرراً من تحليتها بسكر القصب أو النشويات ، وذلك لأن الليفولوز لا ينقلب إلى سكر بول .

• العسل كملين :

يعطى للأطفال « العسل » كملين ، ويدخل فى وصفات الملينات . كالسنا (سلمكه) ، فيمزج مسحوق « السنا » مع العسل فيزيد قوة تليينها . ويعمل العسل حقنة شرجية بمقدار فنجان قهوة كبير على كوب ماء دافىء ، فيأتى بلين أكثر ، وأقل ضرراً ، وهو أحسن من الجلسرين فى هذه الوصفة .

• العسل كدواء للأمعاء :

إذا كانت الأمعاء تخمر النشويات ، وسكر القصب ينتج من التخمير ثانى أكسيد الكربون — أى غازات بدون رائحة — وتحدث انتفاخاً بالبطن ، فإن العسل أقل ضرراً فى هذه الحالة من سكر القصب ، لأن سرعة امتصاصه تعيق تخميره .

٢ — الأصماغ

الأصماغ والعسل يلينان البلغم ، ويسهلان خروجه ، فيفيدان فى أمراض الجهاز التنفسى العادية .

٣ — الفيتامين ج

موجود بكثرة فى العسل ، وهو أهم فيتامين يحتاج له الجسم ، فيساعده على الحركة ، ومقاومة الأمراض ، ويقوى أسنانه وعظامه اللينة ، ويظهر لذلك سببان لاستعمال العسل فى الحميات ، وهى : إيجاد غذاء لا يحتاج لهضم ، وفيتامين « ج » لمقاومة المرض . أما

الفيتامينات « ا ، ب » فإنها نافعة ، إلا أن كميتها ضئيلة .

٥،٤ المعادن وبيض النحل

موجودة بكمية صغيرة تزيد فى التغذية ، كذا حامض النحل كقو للعضلات ، أما بيض النحل ففيه مواد زلالية نافعة ومغذية .

إن العسل مفيد فى كل زمان :

(١) فى تغذية الأطفال والمرضى .

(٢) فى علاج تخمرات الأمعاء من تناول النشويات .

(٣) فى تحلية سوائل مرض البول السكرى .

(٤) كملين للأطفال .

(٥) ومسهل ، بحقنة شرجية .

(٦) ثم مفيد فى حالات السعال مع بلغم بالجهاز التنفسى .

• • •

حقائق علمية

ولكى نزيد هذا الأمر وضوحاً ، ونفصله تفصيلا يليق بإعجاز القرآن الذى يثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم : ننقل هذه الحقائق العلمية عن فريق من الأطباء الباحثين الذين قالوا فى قوله تعالى : (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس) .

لم يعرف قدر هذه الآية العلمية الطبية — التي تعتبر دليلا ما بعده دليل على معجزة القرآن العلمي — إلا في السنين الأخيرة من القرن الحالي . فإن عسل النحل هو سلاح الطبيب في أغلب الأمراض . واستعماله في ازدياد مستمر بتقدم الطب ، فهو يعطى بالفم . وبالحقن الشرجية ، وتحت الجلد ، وفي الوريد ، ويعطى بصفته مقوياً ، ومغذياً ، وضد التسمم الناشيء عن مواد خارجية ، مثل : الزرنيخ ، والزئبق ، والكلوروفورم ، وكذلك ضد التسمم الناشيء من أمراض في أعضاء الجسم ، مثل التسمم البولي ، والناتج من أمراض الكبد والمعدة والأمعاء ، وفي الحميات ، والحصبة ، والالتهاب الرئوي ، والسحائي ، وفي حالات الذبحة الصدرية ، وبصفة خاصة في الارتشاحات العمومية الناشئة عن التهاب الكلى الحاد ، وفي احتقان المخ والأورام المخية .

إذا علمنا أن الجلوكوز يستعمل مع الأنسولين — حتى في حالة التسمم الناشيء من مرض البول السكري — علمنا مقدار فوائده ، وأن القرآن الكريم لم يذكره مصادفة ، ولكنه تنزيل من حكيم حميد .

وتفيد الأخبار الطبية أن الباحثة الأمريكية « جوليا تشرسن » قد توصلت — بعد تجارب متعددة — إلى أنه توجد مادة مجهولة في عسل النحل وشمعه ، لها القدرة على شفاء تصلب المفاصل ، ووجدت أن العسل المستخرج من القرص مباشرة — دون أن يسخن أو يتعرض لأي معاملة صناعية — يقضي على تصلب الرسغين الذي يصيب بني الإنسان .

هذا . وقد اتجهت الأبحاث العلمية التى تجرى على النحل وعسله إلى دراسة سم النحل : إذ تقوم حاليا بعض المؤسسات الطبية باستخراج سم النحل الذى يفرزه عن طريق آلة اللسع ، لاستعماله فى معالجة بعض الأمراض المستعصية . وفى أمريكا وانجلترا حالياً « مناحل » لا غرض لها إلا تربية النحل لاستخراج مصله ، وعمل حقن منها لعلاج كثير من الأمراض الروماتيزمية . وعرق النساء . والرمد الحبيبى .

وما زال العلم يحمل إلينا كل يوم فائدة طبية . إلى جانب الفوائد التى ذكرناها فيما يخرج من بطون النحل .

وقد ذكرت الصحف اللندنية أنه توجد بلندن إمرأة نمساوية تدعى مسز « أوين » تداوى المرضى الذين يئس الأطباء من شفائهم ، بقرص النحل . وقد أثار خبر هذه السيدة اهتماماً كبيراً فى أوساط لندن . لا سيما وأن نتائج معالجتها قد أدت إلى الشفاء .

ومن الأخبار العلمية التى نشرت فى صحف ٦ مارس ١٩٥٦ أن أحد كبار الجراحين فى مستشفى « نور فولك » الإنجليزى : استخدم عسل النحل لتغطية آثار الجروح الناتجة عن العمليات الجراحية التى يجريها ، وذلك بعد أن ثبت له أنه يساعد على سرعة التئام هذه الجروح وإزالة آثارها ، فلا تترك تشويهات بعد العملية ، كما تبين له من التجارب التى أجراها أن طبيعة العسل وما يحويه من مواد تساعد على نمو الأنسجة البشرية من جديد ، فتلتئم الجروح بطريقة مستوية ، ويقوم الطبيب المذكور برش العسل على موضع الجرح بصورة سائلة أو على هيئة حبيبات .

وقد أعلن البروفوسور « كلود هيليو » من علماء فرنسا أن هناك نوعاً من النحل يسمى « النحل الملكى » له قدرة على إفناء جميع أنواع الجراثيم . وأنه سيحقق للإنسانية فوائد عظيمة .

« هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » .

. . .

إلهى . . ما أعظمك ! !

خبرنى بربك يا أخا الإسلام فى أى الجامعات تخرج محمد بن عبد الله ؟ وعلى أى الأساتذة تلقى العلوم ؟ من الذى علم محمداً منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ما أذهل العقول وحير الأفكار ؟ إنه الله الذى قال له : (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما) .

فبينما العلماء المحدثون يجرون أبحاثهم ، وتتوارد الأنباء عن جهودهم — نرى ونقرأ القرآن الكريم منذ الآماد البعيدة يقول فى إعجازه المعجز : (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس) ويقول خاتم الأنبياء صلوات ربى وسلامه عليه : « عليكم بالشفاءين : العسل والقرآن » .

هل دخل محمد صلى الله عليه وسلم المعامل التحليلية واستعمل الأجهزة الدقيقة ؟ هل ذهب إلى أستاذ فى الطب ووظائف الأعضاء ، وتلقى على يديه العلوم الكونية ؟ إن العالم يشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

لم يذهب إلى جامعة من جامعات العالم . ولم يتتلمذ على أستاذ من الأساتذة . وإنما أوحى الله إليه بكتاب حكيم : (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) .

وقال له : (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) .

المبحث الرابع

الرد على أعداء الإسلام فى « آية النحل »

يحاول المستشرقون – ومن على شاكلتهم من المبشرين والمستغربين – أن يثيروا الغبار على كل قضية من قضايا الإسلام بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . وهم فى الحقيقة أقزام يمضغون الهواء ، ويحاولون أن يفتلوا من الرمال حبالا ، وأن يطاولوا السماء ، ويمدوا إلى الشمس يداً شلاء . . . !

« العقاد » والرد على المبشرين

وفى كتاب « ما يقال عن الإسلام » للكاتب الكبير المرحوم الأستاذ العقاد ، وقفت على مقال فى هذا الصدد ، رأيت أن أسجله على هذه الصفحات ، لما يحويه من فوائد جليلة :

يقول الأستاذ العقاد رحمة الله : إن العقل السليم لا يتقبل الحكم على الشيء بالغباوة والقداسة لعلة واحدة فى وقت واحد ، فإن تقبل العقل ذلك فلابد من سبب يوقعه فى هذا الاضطراب باختياره ، وأكثر

ما يكون ذلك السبب مرضاً من أمراض الجنون،أو هوى دفيناً يحمله على المغالطة . ويعجزه عن مقاومتها ، أو خداعاً مقصوداً يعرفه العاقل بينه وبين نفسه ، ويصطنعه مع غيره ، لغشه والاحتيال عليه .

ولسنا نخطىء القول فى أن جماعة المبشرين المتخصصين لنقد القرآن وعقائد الإسلام – آفة من هذه الآفات . فليس فيمن عرفناه منهم واحد يسلم من التخبط فى التفكير ، كما يتخبط المصابون بالعلل العقلية ، أو يملكه التعصب الذميم فيقوده إلى المغالطة ، ويسول له أن يحجب الحقيقة عن عينيه بيديه ، أو يعمل عمل المحترف الذى يحتال لصناعته بما وسعه من وسائل الترويج والتضليل ، ولا يعنيه أن يعرض بضاعته ويهيىء لها أسباب النفاق فى السوق ، وربما اكتفى من النفاق بإقناع صاحب البضاعة بصدق الخدمة فى العرض والترويج !

وبعد هذه المقدمة : عرض الأستاذ العقاد قضية من القضايا الباطلة التى أثارها المبشر « صمويل زويمر » فى كتابه « بلاد العرب مهد الإسلام » فى فصل عن « العلوم والفنون العربية » . قال : « صمويل زويمر » فى هذا الفصل : « إن « الشهد » لم يزل معدوداً كالترياق فى بلاد العرب استناداً إلى القرآن والحديث ، وقد كانت الإشارة الوحيدة إلى الطب فى وحى محمد (صلى الله عليه وسلم) هذه الكلمة « الغبية » التى يقول فيها عن النحل إنه (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) . وقد كان هذا هو العلاج الوحيد الذى وصفه الله فى كتابه ! !

ثم يرد الأستاذ العقاد على هذه الفرية التي افتراها ذلك المبشر فيقول .

إن الدجل المتعمد ظاهر فى قول هذا العلامة « الغبي » إن القرآن حصر الطب كله فى دواء واحد هو « الشهد » . . فإن المعنى الذى تفيده الآية ـ بغير لبس ولا محاولة ـ أن الشهد « شفاء » ولم تقل إنه كل الشفاء . ولا إنه شفاء من جميع الأمراض ، فإن وصف « الشهد » بهذه الصفة لا يزيد على أنه دواء من الأدوية . كما يوصف أى عقار من العقاقير فى الصيدليات .

ومثل هذا الادعاء « التبشيرى » لا يعتسف اعتسافاً بهذه الصورة إلا للافتراء المتعمد . طمساً للحقيقة مع سوء النية .

أما حكم العلامة « بالغباوة » على وصف « الشهد » بالشفاء ، فليس له معنى غير غباوة مطبقة فى القائل إن كان مصدقاً لما قال . . لم لا يكون « الشهد دواء من الأدوية ، وهو خلاصة أعشاب وأزهار » ؟

إن علاج الأمراض بالأعشاب والأزهار قديم جداً فى كل أمة ، وهو قوام للعلاج إلى اليوم فى أكثر الأدوية التى يصفها الأطباء العصريون لضروب شتى من الأمراض ، وتستحضرها معامل الكيمياء فى بلاد الحضارة .

وهذا قبل شيوع الكلام عن « الفيتامينات » وتقرير العلاج بها للأمراض الباطنية وأمراض الأعصاب وعلل الضعف والإعياء على اختلافها . .

فلماذا يمتنع على العقل كل الامتناع أن يصف دواء « الشهد » بوصف غير الغباوة ؟

لماذا يرفض العقل أن تكون خلاصة الزهر ومستودع الفيتامينات والحيوانات دواء ينتفع به الضعيف أو المريض ؟

إن « الغباوة » هي عجز العقل عن فهم هذه الحقيقة ، أو عجزه عن فتح الباب لتصورها على كل احتمال .

وإلى هنا قد تكون « الغباوة » مفهومة إذا هي تشابهت في سوء الفهم ، ولم تتخصص للشهد دون غيره ، ولكنها « غباوة » تنزل إلى ما دون مستوى الفهم إذا كان صاحبها يرفض « الشهد » علاجاً ثم يتقبل تطهير الأمراض الجلدية بدماء العصافير ويتقبل أن تكون رائحة الشواء سروراً للإله !

ثم يستطرد الأستاذ العقاد قائلا : بعد وفاة « زويمر » ببضع سنوات ظهر باللغــة الإنجليزية كتاب عن الطـب الطبيعي يقول مؤلفه عن « الشهـد » ما كان « زويمر » يدعيه على القرآن الكريم ، ويعقد المؤلف لخصائص « الشهد » الطبية فصلا مستقلا يوشك أن يجعله « صيدلية » وافية تغني عن عشرات من العقاقير ، وليس المؤلف واحداً من أولئك المتطببين الجهلاء ، بل هو الدكتور « جارفس » الطبيب المتخرج في مدارس الطب الحديث ، وصاحب المباحث العلمية العديدة ،

وهو لا يعلل فائدة « الشهد » في العلاج « بالبركة » ولا بالتأثير النفساني المستمد من العادة ، ولا بالتغذية الصالحة التي تعمل عمل الدواء ، وإن

لم يحسبها الأطباء من الأدوية العلاجية ، ولكنه يعلله بأسباب علمية يعتمدها الأطباء والصيدليون فى تحضير الأدوية وتقسيمها على حسب الجراثيم التى تحدث الأمراض ، أو تضاعف أضرارها ، ويقول فى تمهيدات فصل مطول كتبه عن « الشهد » خاصة : إنه لا يتكلم عن نظرية معروضة للامتحان ، بل ويقرر التجربة المحققة التى أثبتت أن « البكتريا » لا تعيش فى « الشهد » لاحتوائه على مادة « البوتاس » ، وهى تحرم « البكتريا » تلك الرطوبة التى هى مادة حياتها .

قال : « إن الدكتور « ساكيت » أستاذ البكتريا بكلية الزراعة فى « فورت كولنز » وضع أنواعاً من جراثيم الأمراض فى « قوارير » مملوءة بالعسل الصرف . . فماتت جراثيم « التيفود » بعد ثمان وأربعين ساعة . . وماتت جراثيم « النزلات الصدرية » فى اليوم الرابع . . وماتت جراثيم « الدوسنتاريا » بعد عشر ساعات . . وماتت جراثيم أخرى بعد خمس ساعات . . » ! !

ثم استطرد المؤلف إلى بيان المواد الغذائية الموفورة فى « الشهد » فذكر منها الأغذية المعدنية ، وعد أكثر من عشرة معادن غذائية تدخل فى تركيبه ، ونقل تقرير الأستاذ « شويت » العالم الكيماوى الذى يقول فيه : إن الأغذية المعدنية تختلف باختلاف ألوان « الشهد » : فالنحاس والحديد والمنجنيز أوفر فى « الشهد » الضارب إلى السواد . . والحديد ضرورى لاتصاله بالمادة الملونة للدم أو الهيموجلوبين . ويلى ذلك كلام عن المعادن الغذائية وعلاقتها بألوان هذا الشراب ، كما جاء فى القرآن الكريم ، وهو يشير إلى اختلاف ألوانه ، وما احتوته

عن أسباب الشفاء . . ثم أجمل الطبيب مزايا المادة السكرية فى « الشهد » فعدد منها :

(١) أنها لا تهيج جدران القنوات الهضمية .

(٢) أنها سريعة التمثيل فى البنية .

(٣) أنها تتحول سريعاً إلى طاقة بدنية .

(٤) أنها مناسبة للمشتغلين بالألعاب الرياضية لتعويض الطاقة .

(٥) أنها بين أنواع السكريات أوفقها للكليتين .

(٦) أنها مهدئة ملطفة .

(٧) إنها مساعدة طبيعية لعملية الهضم ، فضلا عن سهولة الحصول عليها .

ومضى الطبيب فى بيان خصائص « الشهد » النافعة للعلاج وغذاء الكبار والصغار ، ولم يذكر فى سائر الفصول دواء طبياً ، آخر ، له مثل هذه الخصائص ، أو لخصائصه ، مثل هذا الثبوت بالتجارب الواقعة وتجارب المعامل .

تصفحت هذا الكتاب عن الطب الطبيعي ، فذكر كلمة « زويمر » عن الآية القرآنية ، ووجدتها مثالا أصلح من كل مثال لإبراز « عقلية المبشر » بما طوته من عيوب الزيغ والتعصب والمغالطة ، مع عيوب الغباوة والغى فى كثير من الأحيان ، ولاح لى أن نصيب « زويمر » من هذه العدة المعكوسة على قدر مكانته فى ميدان التبشير ، إلا أنها عدة

لا ترشحه لرد المسلمين عما اعتقدوه . بل لعله لا يتطلب لرسالته عدة أوفى منها ، لو أنه أراد تثبيت المسلمين على عقائد الإسلام . (انتهى كلامه)

* * *

ولا يسعنا بعد الكلام عن هذه المشاهد القرآنية الكريمة — إلا أن نجمع هذه الآيات — التى سبق الكلام عنها الآن — لتكون صورة متكاملة أمام القارىء ، قال جل شأنه : (وإن لكم فى الأنعام لعبرة ، نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم ، لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ، ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ، إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون ، وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ، ومن الشجر ، ومما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات ، فاسلكى سبل ربك ذللا ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) .   صدقت يا إله العالمين ! !

* * *

لقد أفضنا فى الحديث عن هذه الآيات ، لما اشتملت عليه من أدلة قطعية تخاطب العقل الرشيد بالمنطق السديد ، وتقطع الطريق على كل (أفاك أثيم ، يسمع آيات الله تتلى عليه ، ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها ، فبشره بعذاب أليم ، وإذا علم من آياتنا شيئاً ، اتخذها هزوا ، أولئك لهم عذاب مهين) .

فليسأل الإنسان نفسه : أهناك نظام يقوم بلا منظم ، أو تدبير ينشأ عن غير عناية ؟ وهل تستطيع الطبيعة الصماء أو الصدفة العمياء أن توجد

نظاماً أو تشيد كوناً متكاملا منسقاً . كل ما فيه ينطق بالحكمة وينفى العبث ؟ !

سبحانك ربى ! أنت خالق كل شيء ، وأنت على كل شيء قدير .

يا من لا تدركه الأبصار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا يؤثر فيه الليل والنهار ، وهو الواحد القهار ! !

الإيجاد والعدم

وتنتقل بنا الآيات الكريمة بعد هذا إلى النهاية المحتومة ، والمصير المكتوب على كل إنسان ، فيقول تعالى : (والله خلقكم ، ثم يتوفاكم ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ، لكيلا يعلم بعد علم شيئاً ، إن الله عليم قدير) .

فهذا النص الكريم ينبه ويرشد ـ بعد آيات النعم ـ إلى أنه لابد من المصير المحتوم للقاء الله رب العالمين . . لذلك ، فإننا نرى الكتاب العزيز فى مواضع عديدة يؤكد هذا المعنى . .

اسمع هذا المشهد القرآنى الذى يقول الله عز وجل فيه : (أأنتم أشد خلقاً . أم السماء ! بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها ، وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعاً لكم ولأنعامكم) .

وبعد هذا ، نبه إلى المصير المحتوم ، الذى لابد أن نلاقيه جميعاً .

فقال عز شأنه : (فإذا جاءت الطامة الكبرى ، يوم يتذكر الإنسان ما سعى) .

ثم انتقل معى إلى مشهد قرآنى آخر . يزيد المعنى توكيداً ، حيث يقول الله جل شأنه : (فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً ، فأنبتنا فيها حباً ، وعنباً وقضباً ، وزيتوناً ونخلا ، وحدائق غلباً ، وفاكهة وأباً ، متاعاً لكم ولأنعامكم) .

ثم ينبه بعد ذلك إلى ما سنلاقيه جميعاً ، فيقول جل شأنه : (فإذا جاءت الصاخة ، يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) .

وهكذا أيها القارىء الكريم ، يتجلى أمامك أن الدنيا مهما أقبلت ، فهى مولية . وأن الحيـــاة مهما طالت ، فإنها منتهية . فالليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر : (والله خلقكم ، ثم يتوفاكم ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر . لكيلا يعلم بعد علم شيئاً ، إن الله عليم قدير) .

فالله تعالى يخبر فى هذه الآية الكريمة عن تصرفه فى عباده ، وأنه هو الذى أنشأهم من العدم ، ثم بعد ذلك يتوفاهم ، ومنهم من يعيش حتى يدركه الهرم ، وهو الضعف فى الخلقة ، كما قال تبارك وتعالى : (الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة ، يخلق ما يشاء ، وهو العليم القدير) .

وقد روى عن الإمام على كرم الله وجهه أن أرذل العمر خمس وسبعون سنة ، وفى هذا السن يحصل له ضعف القوى ، والخرف ، وسوء الحفظ ، وقلة العلم ، ولهذا قال : (لكيلا يعلم بعد علم شيئاً) أى بعد ما كان عالماً ، أصبح لا يدرى شيئاً .

روى البخارى فى تفسير هذه الآية الكريمة عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو فيقول : « أعوذ بك من البخل ، والكسل ، والهرم ، وأرذل العمر ، وعذاب القبر ، وفتنة الدجال ، وفتنة المحيا والممات » .

* * *

عود إلى أدلة التوحيد

بعد ما قامت الأدلة الكونية تؤكد وحدانية الخالق . جاءت الآية السابقة (والله خلقكم . ثم يتوفاكم) لتبين أن المصير فى النهاية إلى الله الخالق العظيم ، ثم عاد النظم الكريم يحدثنا عن القضية الأصلية الأساسية التى تدور حولها الأدلة ، وهى قضية التوحيد . فجاء القرآن بدليل يخاطب العقل خطاباً منطقياً سديداً . يخاطب الذين زعموا أن لله شركاء : (سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً)فقال جل شأنه : (والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم . فهم فيه سواء ، أفبنعمة الله يجحدون » ؟ !

يخبر مولانا تبارك وتعالى فى هذه الآية عن جهل الضالين المضلين . المشركين المارقين ، ويبين لهم بشاعة كفرهم فيما زعموه له من الشركاء . وهم يعترفون أنها عبيد له . كما كانوا يقولون فى تلبيتهم فى حجهم : لبيك لا شريك لك . إلا شريكاً هو لك . تملكه وماأملك ، فقال تعالى منكراً عليهم : أنتم لا ترضون أن تتساووا مع عبيدكم فيما رزقناكم — وكلمة « الرزق » هنا : كلمة شاملة عامة ، تشمل كل ما يجود الله به على الإنسان ، وما يهبه إياه من مطعم ومشرب وزوجة ومال ومسكن فكيف يرضى — هو تعالى — بمساواة عبيد له فى الألوهية والتعظيم ؟ كما قال فى الآية الأخرى ، التى تطابق هذا المعنى فى إيضاح قضية الوحدانية توضيحاً لا لبس فيه ، ولا غموض .

وهذه الآية فى سورة « الروم » ، حيث يقول جل شأنه : (ضرب لكم مثلا من أنفسكم : هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء ، تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) .

وقد بلغ من روعة القرآن وعلو طبقته أن آية « الروم » هذه جاءت عقيب عقد فريد انتظم عديداً من الأدلة على الوحدانية . . مثله فى ذلك كمثل آية « النحل » التى نحن بصدد الحديث عنها .

لقد سبق آية « الروم » — السالفة الذكر — قوله تعالى : (يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ويحيى الأرض بعد موتها ، وكذلك تخرجون * ومن آياته أن خلقكم من تراب ، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون * ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون * ومن آياته خلق السماوات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين * ومن آياته منامكم بالليل والنهار ، وابتغاؤكم من فضله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون * ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً ، وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون * ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون * وله من فى السماوات والأرض ، كل له قانتون * وهو الذى يبدؤ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم) .

ثم بعد بيان هذه الأدلة المضيئة بنور الوحدانية ، تأتى الآية الكريمة لتخاطب كل من له عقل وإدراك فتقول : (ضرب لكم مثلا من أنفسكم : هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم ، فأنتم فيه سواء) .

إذا كنت أيها العبد المخلوق لا ترضى لعبد تملكه يمينك أن يتساوى معك فى رزقك ، فكيف ترضى ذلك للخالق البارىء المصور ؟ وكيف تدعى — زوراً وبهتاناً — أن معه من عباده من يساويه فى الألوهية والعظمة

سبحانك ربى ! يا من تقول فى الحديث الجليل : « الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى فيهما أدخلته نارى » .

نعم يا رب العزة : (فما الذين فضلوا ، برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم ، فهم فيه سواء) .

يقول ابن عباس رضى الله عنه فى هذه الآية الكريمة : لم يكونوا ليشركوا عبيدهم فى أموالهم ، فكيف يشركون عبيدى معى فى سلطانى ؟ فذلك قوله تعالى (أفبنعمة الله يجحدون) ؟

ويقول ابن عباس أيضاً : فكيف ترضون لى ما لا ترضونه لأنفسكم ؟

وقوله تعالى : (أفبنعمة الله يجحدون) : أى أنهم جحدوا نعمة الله ، فأشركوا معه غيره ، وكان الأجدر بهم أن يشكروا هذه النعمة ، بعقيدة التوحيد .

ويواصل النظم الكريم سيره المبارك ، فيذكر لنا نعمة هى من جليل النعم التى امتن الله بها على عباده ، فيقول جل شأنه : (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ، ورزقكم من الطيبات ، أفبالباطل يؤمنون ، وبنعمة الله هم يكفرون ؟ » .

أى منطق ، وأى عقل سليم يمعن النظر فى هذه الآية ، ثم لا يلقى باللوم الشديد على كل من يؤمن بالباطل ويكفر بنعمة الله ؟ .

فالله جل شأنه يخبر فى هذه الآية الكريمة أن من نعمه على عباده ، أن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً : من جنسهم ، وأشكالهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ، ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة ، ولكن من رحمته تعالى أنه خلق من بنى آدم ذكوراً وإناثاً ، وجعل الإناث أزواجاً للذكور . ثم ذكر جل جلاله أنه جعل من الأزواج : البنين والحفدة ، وهم أولاد البنين ، قاله ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك وابن زيد . قال شعبة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : « وبنين وحفدة » : وهم الولد ، وولد الولد . وفى قوله تعالى : (ورزقكم من الطيبات) إيجاز بليغ ، وكلمة جامعة . . فالطيبات : كل ما تطيب به النفس من النعم . فهذه الكلمة الكريمة شاملة للمواهب الإلهية التى ينعم بها الإنسان ، وواجبه شكر المنعم عليها :

إذا كنت فى نعمة فارعها . فإن المعاصى تزيل النعم
وحافظ عليها بشكر الإله ، فإن الإله سريع النقم

يا ابن آدم :

يا من بدنياه اشتغل وغره طول الأمل
الموت يأتى بغتة والقبر صندوق العمل

* * *

وبعد هذه النعم كلها يأتى الاستفهام الإنكارى : (أفبالباطل يؤمنون . وبنعمة الله هم يكفرون) ؟ ! بل ويأتى عقيب ذلك قوله تعالى : (ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ، ولا يستطيعون) . وقد جاء فى الحديث الصحيح : « إن الله يقول للعبد يوم القيامة ممتناً عليه : ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل »؟

وأما قوله تعالى : (فلا تضربوا لله الأمثال ، إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون) فقد جاء نتيجة لمقدمات صحيحة : إذ قد ثبت أن الله واحد أحد ، فلا يليق بعاقل أن يضرب له الأمثال ، ويجعل له الأشباه والأنداد ، لأن ما سوى الله تعالى إنما هو مخلوق له ، فكيف يكون المخلوق شبيهاً بالخالق ؟ ! !

والضلال كله أن يحب الناس خمساً وينسون خمساً : يحبون المخلوق وينسون الخالق ، ويحبون المال ، وينسون الحساب ، ويحبون القصور ، وينسون القبور ، ويحبون الدنيا ، وينسون الآخرة ، ويحبون الذنوب ، وينسون التوبة ! !

ابن آدم :

أنت الذى ولدتك أمك بـاكياً والناس حولك يضحكون سروراً
فاعمد إلى عمل تكـون إذا بـكوا فى يوم موتك ضاحكاً مسروراً

(إن الله يعلم وأنتم لا تعلمـون)

إيضاح وتبيين

لما كانت قضية الألوهية من أعظم القضايا ، بل هى أعظمها جميعاً ، فإن القرآن الكريم أورد حشداً كبيراً من الأدلة ، وأراد أن يزيدها إيضاحاً وتقريراً ، فضرب مثلين . . إذ بالمثال يتضح المقال ، قال جل شأنه : (ضرب الله مثلا عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ، ومن رزقناه منا رزقاً حسناً ، فهو ينفق منه سراً وجهراً ، هل يستوون ؟ الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون ، وضرب الله مثلا رجلين : أحدهما أبكم لا يقدر على شيء ، وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير : هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ؟ ، ولله غيب السماوات والأرض ، وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ، إن الله على كل شيء قدير ، والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً . وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ، ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله ؟ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) .

معنى المثل الأول :

ضرب الله مثلا لكل ما يعبد من دون الله فى أى زمان أو مكان والله تعالى هو الواحد الخالق البارىء ، فاطر السماوات والأرض ، واهب الوجود ، والمنعم بكل شيء موجود: (ضرب الله مثلا عبداً مملوكاً) لمالكه ، وهو لا يقدر على شيء أبداً ، فلا ينفع نفسه ، ولا غيره ، وحراً رزقناه منا رزقاً حسناً ، وأعطيناه مالا وفيراً ، فهو ينفق من المال سراً وجهراً فى جهات الخير والبر : هل يستوى هذا العبد الذى لا خير فيه ، مع هذا الحر الغنى المنفق فى وجوه البر والخير ؟ وهل يستوى الضار والنافع ؟ ! !

لا يستوى هذا وذاك أبداً ، ومن ذا الذى يسوى بين غير الله من المخلوقات وبين الله القدير جل جلاله ، وتباركت أسماؤه ، صاحب النعم ، وله ملك السماوات والأرض ، يداه مبسوطتان ، ينفق كيف يشاء ؟ ! ! .

الحمد لله ، والثناء الجميل ، والشكر الجزيل لله الواحد القهار ، المنعم بجلائل النعم ، والمتفضل بدقائقها ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع . . هو المستحق وحده الحمد والثناء ، لا إله إلا هو : (بل أكثرهم لا يعلمون) أى لا يعلمون الحق فيتبعوه ، ويعرفوا المنعم عليهم بالنعم الجليلة فيخصوه وحده بالتقديس والتنزيه .

ومعنى المثل الثانى :

ثم ضرب الله سبحانه وتعالى مثلا ثانياً لنفسه ، ولما يفيض على عباده من النعم الدينية والدنيوية ، وللمعبودات التى لم تسبق لها الحياة ، وهى لا تضر ولا تنفع ، فقال :

(وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم) أى عيي مفحم ، مقطوع اللسان أخرس ، لا يقدر على شىء أبداً لعدم فهمهُ وعدم قدرته على النطق (كل على مولاه) أى يقوم بحاجته ، ولا يؤدى عمله لنفسه ، فهو ثقل على قرابته . . هذا الأبكم الذى لا يقدر على تحصيل شىء أبداً ، وهو كل على مولاه أينما يوجهه إلى أى جهة أخرى لا يأت بخير قط ، لأنه لا يفهم ولا يعقل ما يقال له . .

هل يستوى هذاالذى وصفناه بهذه الأوصاف،والذى يأمر بالعدل ، ويسير بالعدل ، ويحكم بالعدل ويأمر بالعدل ، وينطق ، ويفهم ، ويتصرف على أتم وجه وأكمله ؟ ! ! وهو على صراط مستقيم ، ودين قويم ، وسيرة صالحة ، لا إفراط فيها ولا تفريط ؟ ! !

والنتيجـــة :

نستطيع أن نستنتج من هذين المثالين السابقين ، أن غير الله لا يمكن بحال من الأحوال أن يتساوى مع الله .. فالله واجب الوجود لذاته ، وغير الله حادث بعد العدم ، والله واجب له كل كمال يليق بذاته ، وغير الله لا يخلو من نقص ، والله تعالى واجب له القدم فاستحال عليه

الحدوث . وواجب له البقاء . فاستحال عليه الفناء . وواجب له القيام بالنفس . فاستحال فى حقه الاحتياج إلى غيره ، ووجبت له المخالفة للحوادث . فاستحال فى حقه المماثلة لغيره ، وواجب له الوحدانية ، فاستحال فى حقه الشرك والتعدد . ووجبت له القدرة . فاستحال عليه العجز ، ووجبت له الإرادة ، فاستحال فى حقه القهر والجبر . ووجب له العلم ، فاستحال فى حقه الجهل ، ووجبت له الحياة ، فاستحال فى حقه الموت ، ووجب له السمع والبصر ، فاستحال فى حقه الصمم والعمى ، ووجب له الكلام النفسى ، فاستحال فى حقه البكم .

وغاية الأمر أن كمالات الله لا تتناهى . . لا يحصرها عد ، ولا يحيط بها حد : (قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحـــد) .

مع القدرة الباهرة ، والعلم المحيط

وبعد الحديث عن الوحدانية ، ينتقل بنا النظم الكريم إلى الحديث عن العلم المحيط ، والقدرة الباهرة ، فيقول جل شأنه : (ولله غيب السموات والأرض ، وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ، إن الله على كل شيء قـــدير) .

يخبر مولانا تبارك وتعالى فى هذا النص الكريم عن كمال علمه وعظم

قدرته على الأشياء . . فهو تعالى يعلم غيب السموات والأرض ، وأنه مختص بعلم الغيب لا شريك له ، فلا اطلاع لأحد على ذلك ، إلا أن يطلع الله تعالى من يشاء على ما يشاء ، قال جل شأنه : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ه إلا من ارتضى من رسول) .

أما عن القدرة : فأمره تعالى بالكاف والنون : (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له : كن فيكون) ، (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) . أى فيكون ما يريده سبحانه كطرف العين . وهكذا قال ههنا : (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ، إن الله على كل شيء قدير) ، وكما قال : (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) .

* * *

هذا خلق الله ! !

عالم الأجنة من أكبر الأدلة على صدق القرآن الكريم ، وقدرة الله الذى أنزل القرآن ، وعلى صدق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذى بعث بالقرآن . . فإن الأطوار التى يمر الإنسان بها فى الرحم عديدة ومختلفة ، يقول سبحانه : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين) .

فيم خلقنا ؟ خلقنا فى أرحام يخبر عنها مولانا فيقول : (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم) . .
فما هو الرحم ؟

يقول عنه علماء الحياة ووظائف الأعضاء : إنه كيس عضلى كمثرى الشكل يقع خلف المثانة أمام المستقيم ، ثم يذكرون أبعاده فيقولون إن طوله يبلغ حوالى سبعة من السنتيمترات ، وعرضه يبلغ حوالى خمسة من السنتيمترات ، وسمكه يبلغ حوالى اثنين من السنتيمترات . . والقرآن الكريم يسمى هذا الرحم : قراراً مكيناً ، حيث يقول جل شأنه : (ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه فى قرار مكين * إلى قدر معلوم * فقدرنا ، فنعم القادرون) ؟

هل خلقنا وصورنا فى أضواء أو أشعة ؟ كلا ! بل إن الله سبحانه وتعالى يقول : (يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث) .

فلينظر الإنسان مم خلق ؟

مم خلقنـــا ؟

من كائن منوى . مفرطح الرأس ، طويل الذنب ، لا يزيد طوله عن أربعة وخمسين على ألف من المليمتر . وتبلغ سرعته إلى الطريق إلى الرحم : نصف مليمتر فى الثانية الواحدة ، اتصل هذا الكائن المنوى ببويضة الأم عند ما شاء الله أن يخلق الإنسان ! !

فكيف كان حالنا فى الأرحـــام ؟

كنا نتغذى بغذاء الأم ، ونتنفس بتنفسها ، وقد أمدنا الله بالأوكسيجين اللازم ، وجعل درجة الحرارة فى الرحم ثابتة لا تتغير صيفاً أو شتاء ، وكان وزن الإنسان عندما بلغ سبعة أشهر ــ وهو فى الأرحام ــ خمسة أرطال ، وعندما بلغ تسعة أشهر : كان وزنه سبعة أرطال ، أو ثمانية . . فكيف اجتاز الطريق من الرحم إلى عالم الدنيا ، وهو طريق ضيق دقيق ؟

ذلك أنه لما أراد الله للإنسان الخروج : أمر الرحم أن تتقلص عضلاته ، ــ حيث أصبح الإنسان ضيفاً ثقيلا عليه ــ فتقلصت العضلات ، فعبر الإنسان هذا المضيق الدقيق ! !

والقرآن يجمع تلك الحقائق فى آيات معجزة فيقول : (من أى شئ خلقه ؟ ٭ من نطفة خلقه فقدره ٭ ثم السبيل يسره) .

فكيف كان حالنا عند الخروج من بطون أمهاتنا ؟

يقول عز وجل : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدةلعلكم تشكرون) .

وبنظرة فاحصة فى قوله تعالى : (لا تعلمون شيئاً) : تفيد نفى العلم بالكلية . . إذ يقول علماء اللغة إن النكرة فى سياق النفى : تفيد العموم . ثم بعد ذلك زودنا الله بالعلم والمعرفة . ليكون ذلك دليل إنعامه وتفضله . ولنقابل هذا بالشكر . . والشكر لله : أن تسخر نعم الله فى طاعته ، وأن لا تستعملها فى معصيته :

قال موسى عليه السلام لربه : « يا رب : كيف أشكرك » ؟ . . قال له يا موسى : « تذكرنى ولا تنسانى : إنك إن ذكرتنى : شكرتنى . وإن نسيتنى : كفرتنى » وهذا مصداق قوله تعالى : (فاذكرونى أذكركم . واشكروا لى ولا تكفرون) .

وقد مر أحد الناس برجل من الصالحين ابتلاه الله بفقد بصره . وعجز فى يديه . وهو يردد بلسانه قائلا : « الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيراً من خلقه » . فقال له الرجل : فمن أى شىء عافاك ؟ قال له : « وهب لى قلباً ذاكراً ، ولساناً شاكراً » !

ثم أنشد يقول :

وحمدت الله ربى إذ هدانى ... إلى الإسلام والدين الحنيف
فيذكره لسانى كل وقت ... ويعرفه فؤادى باللطيف !

عالم الطير

وينتقل بنا النظم الكريم بعد ذلك إلى آية المشاهدة لتدل على عظمة الإله الخالق المهيمن وأن تلك الآية : هي عالم الطير ، حيث يقول جل شأنه : (ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء . ما يمسكهن إلا الله ؟ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) .

يقول المفسرون فى هذه الآية الكريمة : ينبه الله سبحانه وتعالى عباده للنظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض : كيف جعله يطير بجناحين فى جو السماء ما يمسكه فيه إلا الله بقدرته تعالى ، وجعل فيها قوى تفعل ذلك ، وسخر لها الهواء يحملها ويسيرها ، كما قال تعالى فى سورة الملك : (أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن؟ ما يمسكهن إلا الرحمن ، إنه بكل شىء بصير) .

واعلم يا أخى أن عالم الطير فيه من حقائق الأسرار ودقائق الأخبار ما ينبىء عن عظمة الخالق الكبير . . فقد نطق العلم مخبراً عن هذه الأسرار : كيف جهز الله الطير بها لتلائم حياته فى هذه الدنيا التى يعيش فيها ، ويطير فى أجوائها ؟

يقول علماء الكون إن الجهاز الهضمى للطيور يختلف اختلافاً كبيراً عن الجهاز الهضمى فى الحيوانات مما يؤكد دقة المرمى ، ويظهر حسن القصد ، ويوضح جميل الصنع . . إذ يمتد من رأس كل طائر جزء

صلب خال من الأسنان ، عظمى التركيب ، هو المنقار الذى يستخدم فى التغذية بدلا من الفم والشفتين والأسنان عند سائر الحيوان ، إذ يبتلع الطير غذاءه بلا مضغ ، وتختلف مناقير الطيور باختلاف أنواع غذائها .

فالطيور الجارحة — كالبوم والحدأة — ذات منقار قوى مقوس حاد ، على شكل خطاف ، وذلك لتمزيق اللحوم . .

بينما الأوز والبط لها مناقير عريضة منبسطة مفلطحة ، كالمغرفة . تلائم البحث عن الغذاء فى الطين تحت الماء . وعلى جانب المنقار زوائد صغيرة ، كالأسنان ، لتساعد على قطع الحشائش .

أما الدجاج والحمام وباقى الطيور التى تلتقط الحب من الأرض : فمناقيرها صغيرة مدببة ، لتؤدى هذا الغرض .

بينما منقار البجعة — مثلا — طويل طولا ملحوظاً ، ويمتد من أسفله كيس كبير يشبه الجراب ، ليكون كشبكة الصياد ، إذ أن السمك هو غذاء البجعة الأساسى .

ومنقار الهدهد وأبى قردان طويل مدبب ، أعد بإتقان للبحث عن الحشرات والديدان ، والتى غالباً ما تكون تحت سطح الأرض .

ويقول العلم إنه يمكن للإنسان أن يعرف غذاء أى طير من النظرة العابرة إلى منقاره .

أما باقى الجهاز الهضمى للطير فهو غريب عجيب ، فلما لم يعط أسناناً فقد خلقت له حويصلة وقانصة تهضم الطعام .

ويلتقط الطير مواد صلبة وحصى لتساعد القانصة على هضم الطعام .

* * *

تأمل معى : من الذى هيأ لعالم الطير هـــذا النظام ، وأرشده إلى أن يسلك سبل الحياة ، كما قال سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم : « لو توكلتم على الله حق توكله : لرزقكم كما يرزق الطير . تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً » .

هل تستطيع الطبيعة الصماء ، أو الصدفة العمياء أن توجد هذا النظام البديع ، والإتقان الحكيم ؟ ! ! (قال فمن ربكما يا موسى * قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ، ثم هدى * قال فما بال القرون الأولى ؟ قال علمها عند ربى فى كتاب ؛ لا يضل ربى ولا ينسى * الذى جعل لكم الأرض مهداً ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى * كلوا وارعوا أنعامكم ، إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) .

من النعم الإلهية

وتسير بنا الآيات فى زحفها المبارك ، حيث تذكر لنا نعماً من نوع آخر ، غير الذى قدمته على مائدة الكرم الإلهى ، فيقول سبحانه : (والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً

تستخفونها يوم ظعنكم ، ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين * والله جعل لكم مما خلق ظلالا ، وجعل لكم من الجبال أكناناً ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ، وسرابيل تقيكم بأسكم ، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون * فإن تولوا ، فإنما عليك البلاغ المبين * يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ، وأكثرهم الكافرون) .

يخبر مولانا تبارك وتعالى فى هذا المشهد الرائع عن تمام نعمه على عباده ، بما جعل لهم من البيوت ، التى هى سكن لهم ، يأوون إليها ويستترون بها ، وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع ، وجعل لهم أيضاً من جلود الأنعام بيوتاً يستخفون حملها فى أسفارهم ، ليضربوها لهم فى إقامتهم ، فى السفر والحضر .

ولهذا قال : (تستخفونها يوم ظعنكم) ، أى فى أسفاركم (ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها) : أى من الغنم ، (وأوبارها) . أى الإبل : (وأشعارها) : أى المعز ، والضمير عائد على « الأنعام » . (أثاثاً) : أى تتخذون منه أثاثاً ، يعنى كل ما ينتفع به من أثاث البيوت ، وهو أهم من المال والثياب ، إذ أنه قد يكون مصدراً للربح فى التجارة ، وتصنع منه البسط والسجاد . وقوله تعالى : (ومتاعاً إلى حين) : أى إلى أجل مسمى ، ووقت معلوم .

وقوله تعالى : (والله جعل لكم مما خلق ظلالا) : أى مما خلق من الأنعام والبيوت والجبال والأشجار ظلالا تستظلون بها من وهج الشمس

وزمهرير البرد : والله جعل لكم من الجبال أكناناً ومغارات تأوون إليها من العدو ، أو خوف الشمس ، أو من زحمــة الناس ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ، من القطن والكتان والصوف وغيرها (وسرابيل تقيكم بأسكم) كالدروع من الحديد المصفح ، وغير ذلك مما يستعمل فى الحروب .

وقوله تعالى : (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) : أى هكذا نجعل لكم ما تستعينون به على أمركم ، وما تحتاجون إليه ليكون لكم عوناً على طاعته وعبادته .

* * *

ومما هو جدير بالذكر أن هذه السورة التى نحن بصدد الحديث عنها – وهى سورة النحل – تسمى أيضاً سورة « النعم » ، وذلك لما اشتملت عليه من الآلاء العظيمة ، والنعم الكريمة .

* * *

إنما أردنا بتلك اللمحة أن نوضح نقطتين هامتين يلاحظهما القارىء لكتاب الله العزيز بعين البصيرة . .

فهذه السورة الكريمة اشتملت على مشاهد عديدة من النعم العظمى وقد لاحظنا أنها كلما ذكرت جملة من النعم : عقبت عليها بتعقيب يظهر طبائع الإنسان ، الذى لا يقابل هذه النعم بما يليق بها من شكر الإله الواحد ، وذلك كما جاء فى سورة « الرحمن » عقبت كل نعمة بـ (فبأى آلاء ربكما تكذبان) .

وفى سورة : « النحل » جاء عقيب المشهد الأول من النعم قوله تعالى : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) .

ثم نطق القرآن الكريم بقوة وصراحة فقال : (فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة) ، ثم بعد ذلك عرضت السورة مشهداً آخر من النعم ، وذلك من أول قوله تعالى : (والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون) إلى قوله تعالى : (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات) .

ثم عقب على هذا المشهد من النعم بما يظهر طبائع الناس من إعراضهم

عن الشكر ، فقال سبحانه : (أفبالباطل يؤمنون ، وبنعمة الله هم يكفرون) .

ثم استعرضت السورة مشهداً ثالثاً من النعم . وذلك من أول قوله تعالى : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً) إلى قوله جل شأنه : (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) .

ثم عقبت على هذا المشهد الكريم بما يظهر طبائع الناس من انصرافهم عن شكر النعم ، فقال سبحانه : (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ، وأكثرهم الكافرون) .

وقد ذكر أن أعرابياً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله ، فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم (والله جعل لكم من بيوتكم سكناً) ، فقال الأعرابي : نعم ، قال : (وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً) الآية ، قال الأعرابي ، نعم ، ثم قرأ عليه.. وكل ذلك يقول الأعرابي : نعم ، حتى بلغ : (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) ، فولى الأعرابي : فأنزل الله تعالى : (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ، وأكثرهم الكافرون) .

تلك ملاحظة أولى :

وقد أظهرت لنا موقف الإنسان من نعم ربه ، وكان ينبغي عليه أن يكون مقراً بالفضل ، عارفاً بما يكافىء جزيل النعم . .

وقد اختتمت هذه السورة بموقفين كريمين ، لنبيين عظيمين ، وقفاً موقف الشكر والصبر : نبي الله إبراهيم ، ونبي الله محمد ، عليهما الصلاة والسلام .

يقول القرآن فى حق إبراهيم الخليل عليه السلام : (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ، ولم يك من المشركين ، شاكراً لأنعمه ، اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ، وآتيناه فى الدنيا حسنة ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) .

ويقول فى حق خاتم الأنبياء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : (واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولاتحزن عليهم ، ولاتك فى ضيق مما يمكرون) .

فما أجمل الشكر عند الرخاء ، والصبر عند الضراء . . !

وكما قال سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله لهو خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له » .

أما الملاحظة الثانية :

فقد سبق أن قررنا أن القرآن الكريم — فى مواضع كثيرة — بعدما يذكر نعم الله فى الدنيا على عباده ، ينبه عقولهم ، ويشد أفئدتهم إلى ما بعد الدنيا من البعث والجزاء ، وقد سقنا الشواهد الدالة على ذلك .

وهذا مشهد آخر من تلك المشاهد . . فالله تعالى — بعدما ذكر النعم الجزيلة والآلاء الجليلة — أخذ بأيدينا ليوقف عرصات القيامة وساحات الحساب ، فقال سبحانه : (ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ، ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون ، وإذا رأى الذين ظلموا

العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون * وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ، قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك ، فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون * وألقوا إلى الله يومئذ السلم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون * الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون) .

ليس لها من دون الله كاشفة :

وهكذا . . وجدنا أنفسنا قد انتقلنا من بطون الأمهات ، وقمنا بتمثيل أدورانا على مسرح الحياة ، وتمتعنا بنعم الله . . ثم انتقلنا بعد ذلك إلى هذا المشهد القرآنى الذى يأخذ بالألباب ، ويجعل القارئ يستولى عليه العجب ، حيث يجد هذه الصور الرهيبة فى عرصات القيامة : الظالمون يرون العذاب ، فلا يخفف عنهم ، والمشركون يرون الشركاء ، فيلزمونهم الحجة ، والذين كفروا وصدوا عن سبيل الله يضاعف لهم العذاب ، وكل نبى يشهد على أمته بأنه قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، والكافرون قد انقطعت أعذارهم ، وبطلت حججهم ، فلا يؤذن لهم ، كما قال تعالى : (هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون) ، وقوله تعالى : (ولاهم يستعتبون) : أى لا يطلب منهم العتبى . . أى الرضا .

إذ أنه لا فائدة من العتاب ، مع العزم على السخط وعدم الرضا ، وهم لا يكلفون أن يرضوا ربهم ، فقد فات زمنه فى الدنيا ، وذهبت

السكرة ، وحلت الفكرة ، وانفض السوق ، فربح فيه الرابحون ، وخسر فيه الخاسرون .

فإذا كانت الدنيا دار عمل ولا حساب ، فالآخرة دار حساب ولا عمل ، ويومئذ لا ينفع التمني فلا يقبل من أحدهم أن يقول : (يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ، ياويلتي : ليتني لم أتخذ فلاناً خليلا) ، (ياليتني لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ، ياليتها كانت القاضية) ، (يا ليتني كنت تراباً) ، (يا ليتني قدمت لحياتي) ، (يا ليتنا نرد ، ولا نكذب بآيات ربنا) . . عندئذ يقول لهم : (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ، وجاءكم النذير ؟ ، فذوقوا ، فما للظالمين من نصير) .

فبادر يا أخي بالرجوع إلى الملك الديان قبل فوات الأوان ، حيث لا ينفع الندم .

عجوز تمنت أن تكون صبيـــة   وقد نحل الجنبان واحدودب الظهر
فسارت إلى العطار تبغي شبابها   وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟

• • •

قوله تعالى : (وإذا رأى الذين ظلموا العذاب ، فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون) ، أي لا يفتر عنهم ساعة ، ولاهم يؤخرون عن تنفيذ حكم الله فيهم : (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ، ولم يجدوا عنها مصرفاً) (وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ، ينظرون من طرف خفي) .

فاتق دعوة المظلوم . ولو من كافر ، فالظلم ظلمات يوم القيامة . . ومن كفر . فعليه كفره .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً ... فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك ، وعين الله لم تنم !

المحكمة الإلهية العليا

قوله جل شأنه : (وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ، قالوا : ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك ، فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون . وألقوا إلى الله يومئذ السلم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون) .

هذه وقفة فى محكمة الجنايات الإلهية العليا للحكم فى أكبر جناية ترتكب ألا وهى : الشرك ، الذى نص عليه قانون الله تعالى قائلا : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيما) .

وقد دارت المناقشة بين المشركين والآلهة فى هذه الجلسة العاصفة على النحو التالى :

قال المشركون : (ربنا هؤلاء الذين كنا ندعوا من دونك) .

فردت عليهم الآلهة التى كانت تعبد فى الدنيا : (إنكم لكاذبون) ! !

وهذا مصداق لقوله تعالى : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من

لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون » وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء ، وكانوا بعبادتهم كافرين) .

ومصداق لقوله جل شأنه : (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً » كلا ، سيكفرون بعبادتهم ، ويكونون عليهم ضداً) ، وقد قال القرآن الكريم على لسان الخليل إبراهيم عليه السلام : (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضاً) .

وقوله تعالى (وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) .

فماذا يقول المشركون ، بعدما لزمتهم الحجة ، وحق عليهم القول ؟ إنهم كما قال الله : (وألقوا إلى الله يومئذ السلم) : أى ذلوا واستسلموا يومئذ ، فلا أحد إلا سامع مطيع ، كما قال تعالى : (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ، لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين) أى ما أسمعهم ، وما أبصرهم ! ! وهو أسلوب فى التعجب .

وكما قال تعالى (وعنت الوجوه للحى القيوم) أى خضعت ، وذلت واستكانت ، وأبانت ، واستسلمت : (وقد خاب من حمل ظلماً) ، وقوله تعالى : (وضل عنهم ما كانوا يفترون) : أى ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه ، افتراء على الله فلا ناصر لهم ، ولا معين ولا مجير .

وبعد أن تمت المحاكمة : أصدرت محكمة العدل الإلهية الكبرى حكمها المبرم الذى لا يقبل استئنافاً ولا نقضاً ، فقال سبحانه : (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون) :

أى عذاباً على كفرهم ، وعذاباً على صدهم الناس من اتباع الحق . كقوله تعالى : (وهم ينهون عنه وينأون عنه) : اى ينهون الناس عن اتباعه ، ويبتعدون هم منه أيضاً : (وإن يهلكوا إلا أنفسهم وما يشعرون) .

وهذا دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم ، كما يتفاوت المؤمنون فى درجاتهم ، فإن الجنة درجات ، والنار دركات : (قال لكل ضعف ، ولكن لا تعلمون) .

صاحب اللواء المعقود
صلى الله عليه وسلم

اختتم الله هذا المشهد الرائع ، وهذا الموقف الرهيب بقوله : (ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم ، وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ، ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ، وهدى ، ورحمة ، ، وبشرى للمسلمين) .

هذه الآية شبيهة بالآية التى انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم صدر سورة « النساء ».. فلما وصل إلى قوله تعالى : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حسبك . فقال ابن مسعود : فالتفت إليه ، فإذا عيناه تذرفان الدمع » .

هذا خطاب إلى صاحب اللواء المعقود ، والمقام المحمود ، والحوض

المورود .. إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى سيشهد على هؤلاء جميعاً ، فهو خاتم الأنبياء والرسل ، الصادق الأمين وكتابه هو المهيمن على جميع الكتب ، الذى جعله الله هدى ورحمة للعالمين : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً) ، (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليهم شهيداً) .

فكيف كان القرآن تبياناً لكل شيء ؟

يجيب على هذا السؤال صاحب « الكشاف » رحمه الله ، فيقول :

« فإن قلت : كيف كان القرآن تبياناً لكل شيء ؟ قلت : المعنى أنه بين كل شيء من أمور الدين حيث كان نصاً على بعضها ، وإحالة على السنة ، حيث أمر الله فيه باتباع رسوله صلى الله عليه وسلم وطاعته (من يطع الرسول فقد أطاع الله) ، (وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى) . وحثاً على الإجماع فى قوله : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين ، نوله ما تولى ونصله جهنم ، وساءت مصيراً) ، وقد رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته اتباع صحابته واقتفاء آثارهم فى قوله صلى الله عليه وسلم « أصحابى كالنجوم : بأيهم اقتديتم ، اهتديتم . وقد اجتهدوا وقاسوا ووطئوا طرق القياس والاجتهاد ، فكانت السنة . والإجماع والقياس والاجتهاد مستندة إلى تبيان ، الكتاب ، فمن ثم : كان القرآن تبياناً لكل شيء » اهـ كلامه .

صدقت يا ذا الجلال والإكرام ، يا من قلت : (ما فرطنا فى الكتاب من شيء) ، وقلت : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وقلت : (وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا) وصدق رسولك الكريم ، إذ يقول : « لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، ولو كان أخى موسى حياً : ما وسعه إلا اتباعى » ، وإذ يقول : « أوتيت القرآن ومثله معه » .

فما من نظام مستقيم وعادل فى هذه الدنيا إلا نظام الإسلام : تنزيل من حكيم حميد) ، (وأن هذا صراطى مستقيما ، فاتبعوه ، لا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) .

قواعد البناء القوية

بعد ما بينت الآية السابقة شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، عقبت بأن الله تعالى نزل عليه الكتاب الكريم ، ليكون تبياناً وتوضيحاً ، وسراجاً منيراً ، يضيء مسالك الحياة ، وليكون هادياً ، ورحمة ، وبشرى للمسلمين ، حيث ، انتقل النظم الكريم بعد ذلك يبين لنا القواعد الأكيدة الوطيدة والأركان التي لا تهتز ولا تختل ما بقيت الدنيا ، ويوم يقوم الحساب ، فقال سبحانه : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون) .

هذا النص الكريم الخالد ورد فيه الأمر بثلاثة أشياء ، والنهى عن ثلاثة أشياء :

يقول ابن مسعود رضى الله عنه : إن أجمع آية فى القرآن فى سورة « النحل » هى قوله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) الآية .

وقد ذكروا أن الحكيم العربى « أكثم بن صيفى » أرسل وفداً من أتباعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه ، فالتقوا به ، فقالوا : نحن رسل أكثم بن صيفى ، وهو يسألك : من أنت ؟ وما أنت؟ فقال النبى

صلى الله عليه وسلم « أما من أنا ؟ فأنا محمد بن عبد الله ، وأما ما أنا : فأنا عبد الله ورسوله » ، قال ثم تلا عليهم هذه الآية : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) الآية ، قالوا : ردد علينا هذا القول ، فردده عليهم حتى حفظوه ، فأتوا أكثم ، فقالوا : أبى أن يرفع نسبه ، فسألنا عن نسبه : فوجدناه زاكي النسب ، شريفاً ، وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها ، فلما سمعهن أكثم قال : « إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى عن ملائمها ، فكونوا فى الأمر رؤوسا ، ولا تكونوا فيه أذناباً » !

العدل ونتائجه ، والظلم وعواقبه

لقد أمر مولانا تبارك وتعالى بالعدل أولا ، والإحسان ثانياً . ثم بإيتاء ذى القربى .

والعدل هو القاعدة الأصيلة فى بناء الأمم : إذ هو وضع الشىء فى موضعه ، وإقامة الميزان بالقسط ، وإعطاء كل ذى حق حقه .

ولما كان العدل هو الذى يقيم الأمم ويقومها : فإن الظلم يدمرها ويهلكها ، وقد تضافرت آيات الكتاب العزيز على ذلك . . قال جل جلاله (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا) ، وقال : (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) ، وقال : (وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا) ، وقال : (فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة ، فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد) ، وقال : (وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير) ، وقال (فبظلم من الذين هادوا ، حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) .

وهكذا تقوم الأمم بالعدل ، وتدمر بالظلم .

أما الإحسان : فهو زيادة عن العدل ، أى إذا كان العدل أساساً :

فالإحسان تفضل وكرم ، ولذا : فإن الله تعالى يقول فى شأن العدل : (والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون) ويقول فى شأن الإحسان : (وإذا ما غضبوا هم يغفرون) ويقول فى شأن العدل : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وفى شأن الإحسان : (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) ، ويقول فى شأن العدل : (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) وفى شأن الإحسان : (ولمن صبر وغفر ، إن ذلك لمن عزم الأمور) .

وقد جل جلال الله إذ يقول : (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوي ، واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون) .

فبالعدل قامت السموات والأرض ، وبالعدل تقوم الحياة الهادئة المطمئنة . . إذ هو ميزان الحياة الصحيحة ، به تطمئن النفوس ، وتنشرح الصدور ، ويأمن الأفراد على حقوقهم ، والحكام على أنفسهم . وأن أى مجتمع يزول من بين أفراده العدل وتقوض أركانه لهو جدير بالمهانة ، وحقيق بالذلة . . إذ يقول المعصوم صلى الله عليه وسلم فيما يرويه معاوية رضى الله عنه : « لا تقدس أمة لا يقضى فيها بالحق ، ولا يأخذ الضعيف حقه من القوى » .

فالعاقل من حفظ نفسه من الجور ، وعدل مع ربه وخالقه ورازقه ، فعمل ما أمر الله به ، وترك ما نهى عنه ، وراقبه فى السر والعلن ، وكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

وعندما أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بتاج كسرى وسواريه قال : إن الذى أدى هذا لأمين ، فقال له على بن أبى طالب كرم الله وجهه : عففت فعفوا ، ولو رتعت : لرتعوا » .

وهذه صورة مشرقة من حياة الفاروق رضى الله عنه ، فقد رآه رجل من الفرس ينام فى ظل شجرة ، وهو مستغرق فى نوم عميق ، دون أن يكون حوله من يحرسه ، ذلك لأنه أقام العدل ، فوقف الفارسى يعجب : أهذا أمير المؤمنين ؟ ! ثم قال : « حكمت فعدلت . فأمنت فنمت يا عمر » .

وهذا المشهد يصوره شاعر النيل فيقول :

وراع صاحب كسرى أن رأى عمراً	بين الرعية عطلا وهـو راعيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملا	ببردة كاد طول العهـد يبليها
رآه مستغرقاً فى نومه ، فرأى	فيه الجلالة فى أسمى معانيها
وحسبه بملوك الفرس أن لها	سوراً من الجند والأحراس يحميها
فقال قولة حق ، أصبحت مثلا	وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها
أمنت لمـا أقمت العدل بينهمو	فنمت نوم قرير العين هانيها
قد كنت أعدى أعاديها فصرت لها	بفضل ربك حصناً من أعاديها

ولذلك كان أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يقول : لو عثرت بغلة بالعراق لسألنى الله عنها لم لا تصلح لها الطريق يا عمر ؟ ! .

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يوم من إمام عادل : أفضل من عبادة ستين سنة ، وحد يقام فى الأرض بحقه : أزكى من مطر أربعين صباحاً » .

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منى مجلساً : إمام عادل ، وأبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم منى مجلساً : إمام جائر .

إذا كانت هذه هى مكانة العدل : فإن الإحسان فيه زيادة عن العدل ، وفضل ورحمة وكرم ، وقد يأتى الإحسان بمعنى آخر ، كما بين ذلك الصادق الأمين محمد صلى الله عليه وسلم فى قوله : « الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه : فإنه يراك » فهذا معنى يرتفع بالنفس من غياهب الظلمات وفلول الدجى وحضيض الغبراء ، إلى قمة شماء فى باذخ العلياء : إذ اشتمل هذا المعنى على درجتين : درجة المشاهدة : « أن تعبد الله كأنك تراه » ، ودرجة المراقبة : « فإن لم تكن تراه : فإنه يراك » .

وبهذا يعمل الضمير الحى عمله . . فقد رأى أبو هريرة رضى الله عنه رجلا يغش اللبن بالماء ، فقال له : يا هذا : ماذا تقول إذ قيل لك يوم القيامة خلص اللبن من الماء . ؟

نعم : إن « الضمير » هو السلطة التى تدفع النفس إلى مراقبة ربها وخالقها ، والاستشعار بهيمنة سلطانه .

وهل ننسى موقف هذه الفتاة التى كانت أمها تغش اللبن ونهاها أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه عن هذا الفعل ، ولكنها عادت وغشت اللبن ، فقالت لها ابنتها : يا أماه ألم ينهك أمير المؤمنين عن هذا ؟ فقالت

لها : وهل يرانا أمير المؤمنين ؟ قالت لها : إن كان أمير المؤمنين لا يرانا .
فإن الله رب العالمين يرانا ! وكان عمر فى هذه الأثناء يمر يتفقـــد الرعية .
فرآها تغش اللبن ، فقال لها : يا عجوز ألم أنهك عن غش اللبن ؟ قالت .
والله ما غششته يا أمير المؤمنين . . وإذا بصوت « الضمير » ينبعث من
داخل هذا الكوخ : صوت ابنتها – يقول لها : يا أماه أتغشين المسلمين ،
وتحنثين فى اليمين . .وتكذبين على أمير المؤمنين . ؟ !

وأخذت هذه الكلمات طريقها إلى قلب عمر رضى الله عنه . ولها
رنين قوى أنقى من رنين الذهب . فهل يقف عمر منها موقفاً سلبياً ؟ كلا !
لقد زوجها لابنه « عاصم » فأنجبت منه فتاة اسمها « ليلى » : هذه الفتاة
تزوجت عبد العزيز بن مروان ، فأنجبت منه خامس الخلفاء عمر
ابن عبد العزيز ، الخليفة الزاهد ، العادل ، الرحيم ، . . ذلك الذى يوم
مات قال رعاة الغنم فى شواهق الجبال : اليوم مات عمر . قيل : وما
أدراكم بموته ؟ قالوا : لأن الذئب قد عدا على الغنم ، وما عهدناه كذلك
فى حياة عمر . .

ولما تحقق الناس من الخبر . وجدوه قد مات فعلا .

وقد سئل عمر بن عبد العزيز فى حياته عن هذه الظاهرة العجيبة . وهى
أن الذئب أصبح يرعى الغنم كأنه كلبها وحارسها ، فقال لهم « أخلصت
ما بينى وبين ربى ، فأخلص الله ما بين الذئب والغنم

هكذا صارت بنت بائعة اللبن : فى بيت الإمارة . . وهكذا صارت جدة لأمير المؤمنين .

وهكذا يقوم الإيمان ببناء النفوس ويشيد صروحها .

صدقت يا سيدى يا رسول الله : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

صلة الرحم

أيها القارىء الكريم : بإقامة العدل تحيا النفوس . وبالإحسان يرتفع شأنها . وبإيتاء ذى القربى يعم الإخاء والرحمة ، فليس هناك مكانة تعدل صلة الرحم ، وأول الأرحام فى « كشف » الصلة : الوالدان . يليهما الأقرب . فالأقرب .

ولمكانة الأرحام العظيمة عند الله فقد عطفت على لفظ الجلالة فى قوله تعالى (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً) .

وقد سأل عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال : « الصلاة على وقتها ، قلت : ثم أى ؟ قال بر الوالدين ، قلت : ثم أى ؟ قال الجهاد فى سبيل الله » .

وقد بين الحديث الشريف الذى رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانة الوالدين على أولادهما ، حيث يقول : « لا يجزى ولد والداً إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه » .

هذه توجيهات نبوية وإرشادات إسلامية تحث على صلة الرحم : لما فيها من الفضائل والمزايا :

يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » .

تأمل معى أيها القارىء الكريم مكانة الرحم عند الله تبارك وتعالى فى هذا الحديث الشريف الذى يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى خلق الخلق ، حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال : نعم ! أما ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى ! قال : فذلك لك ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : اقرأوا إن شئتم : (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟ ، أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) وفى رواية للبخارى : فقال الله تعالى : « ومن وصلك وصلته ، ومن قطعك قطعته » .

فعليك بصلة أرحامك ، وحاذر من قطيعتها ، فإن الله تعالى جل جلاله يقول فى الحديث القدسى : « أنا الله ، وأنا الرحمن ، وقد اشتققت للرحم اسما من اسمى : فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته » .

وإذا كانت الآية الكريمة قد أمرت بصلة ذى القربى وإيتائهم حقهم ، فلأنهم أولى الناس بالمعروف . قال عليه الصلاة والسلام : « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم اثنتان : صلة ، وصدقة » . وليس معنى

هذا أن ذوى القربى هم المخصوصون بالصلة ، بل هم أولى الناس بالصلة ، لأن هناك رحماً عامة : هم كل من يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وهؤلاء لهم حقوق على كل مسلم ومسلمة : كأن يعوده إذا مرض ، ويشيعه إذا مات ، ويسلم عليه إذا مر به وينصحه إذا استنصحه ، ويجيبه إذا دعاه ، ويفرح له إن كان فى خير ، ويحزن من أجله إن كان فى شر .

وهناك صلة إنسانية أوسع دائرة ، تربط الإنسان مع غيره من الناس رباطاً يقوم على العدل والإنصاف ، دون ظلم أو اعتداء : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » .

* * *

وهذا تعليق على قوله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) الآية . .

لقد اشتملت هذه الآية الكريمة على أوامر ثلاثة ، ونواه ثلاثة :

أما الأوامر الثلاثة فهى :

العدل — والإحسان — وإيتاء ذى القربى

وأما النواهى الثلاثة فهى :

الفحشاء — والمنكر — والبغى

فالبغى ، والعدل نقيضان لا يجتمعان .

والإحسان ، والمنكر : ضدان لا يلتقيان .

وإيتاء ذي القربى ، والفحشاء : أمران متقابلان لا يلتقيان .

فالعدل ، والإحسان ، وإيتاء ذى القربى : فضائل .

والفحشاء ، والمنكر ، والبغى : رذائل .

وفى لفظ « الفحشاء » ما يشعر بما فحش وعظم من الذنوب بحيث تجاوز كل لياقة .

ولذلك نرى القرآن الكريم يعبر عن بعض الذنوب بلفظ « الفحشاء » ، فيقول فى نكاح زوجة الأب « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ، إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا » . . ويقول فى شأن الزنا : « ولا تقربوا الزنا ، إنه كان فاحشة وساء سبيلا » ، ويقول فى شأن الشذوذ الجنسى : (ولوطاً إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ؟ !) .

كل هذه الكبائر من الذنوب فحشت وزاد خطرها . . من أجل ذلك ورد النهى عنها فى كل صورها ، قال تعالى : (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) ، وقال جل شأنه : (قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن) .

أما المنكر : فهو كل ما تنكره الأذواق السليمة ، ولا يقره العرف الصحيح . ذلك لأن المنكر ضد المعروف ، وقد وردا فى آيات كثيرة ،

كما فى قوله تعالى : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض : يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) وفى وصية لقمان لابنه : (يا بنى أقم الصلاة ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك) ، وفى قوله جل شأنه (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر) .

وبنظرة فاحصة فى الكلمتين : تستطيع أن تدرك الفرق الشاسع بينهما .

فـ « المعروف » فى ظهوره ووضوحه : كالشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها .

و « المنكر » فى قبحه ، وسوء فعله ، وتفور النفوس السليمة منه : كظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج الإنسان يده لم يكد يراها .

فأكل مال اليتيم : منكر ، والسحر : منكر ، وقذف المحصنات الغافلات : منكر ، وقتل النفس التى حرم الله قتلها : منكر ، والتولى والفرار من الجهاد : منكر ، والغيبة ، والنميمة ، وقطع الطريق . . كل هذه منكرات نهى الله عنها ، وشدد الوعيد ، لمقترفيها .

الظلم ظلمات يوم القيامة

أما « البغى » : فهو تجاوز الحد ، وترك العدل والإنصاف ، مما يترتب عليه الظلم ، وأكل أموال الناس بالباطل .

وكلمة « الظلم » من أبشع الكلمات وأقساها وقعاً على النفس ، حتى كان اصطدام النفوس بها كاصطدام مطارق الحديد بأوانى الفخار .

ويكفى للدلالة على ذلك أن نقرأ قول الله تبارك وتعالى فى حق الظالمين : (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) وقوله جل شأنه : (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ، لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين) ، وقوله تعالى : (وما للظالمين من ولى ولا نصير) .

استمع معى إلى هذا الحديث القدسى الجامع الذى رواه أبو ذر الغفارى رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رب العزة جل جلاله إذ يقول :

« يا عبادى : إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرماً بينكم . فلا تظالموا .

يا عبادى : كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم .

يا عبادى : كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم .

يا عبادى : كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسونى أكسكم .

يا عبادى : إنكم تخطئــون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفرونى أغفر لكم .

يا عبادى : إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى .

يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم : ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً .

يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم : ما نقص ذلك من ملكى شيئاً .

يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا فى صعيد واحد فسألونى ، فأعطيت كل إنسان مسألته : ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر .

يا عبادى : إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

قال سعيد : كان أبو إدريس إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه .

رواه مسلم

* * *

لقد سقنا هذا الحديث بطوله لما اشتمل عليه من عظائم الأمور . . ويكفى أن نقف عند قوله جل شأنه : (حرمت الظلم على نفسى) .

فسبحان صاحب العدل المطلق ، والعظمة الإلهية ! !

* * *

ولقد أخبر الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه عن بشاعة الظلم يوم القيامة فقال : « اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم : حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم » رواه مسلم .

تأمل معى هذه العدالة المطلقة فى رد الحقوق إلى أصحابها يوم يقوم الناس لرب العالمين .

جاء فى الحديث الشريف : « لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » (١) رواه مسلم .

ولحرمة الحقوق وشدة صيانة الإسلام لها : وقف الرسول ﷺ فى حجة الوداع يؤكد هذا المعنى فيقول : « إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة يومكم هذا . فى بلدكم هذا ، فى شهركم هذا . ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم ، قال : اللهم اشهد . « ثلاثاً » ويلكم ـ أو ويحكم ـ انظروا : لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » .

رواه البخارى .

ثم انظر ـ بعد ذلك ـ إلى من يغتصب حق أخيه المسلم بغير حق .

(١) الشاه الجلحاء : هى التى ليس لها قرن .

فيغير حدود الأرض — مثلا — ما شأنه ؟ وما حاله يوم القيامة ؟ يقول الحديث الشريف : « من ظلم قيد شبر من الأرض : طوقه من سبع أرضين » ! !

* * *

إذا غرتك قوتك يا ابن آدم : فلم استحكمت فيك شهوتك ؟ وإذا غرك غناك : فارزق عباد الله يوماً ! !

إياك والظلم — يا أخى المسلم — فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله ليملى للظالم ، فإذا أخذه لم يفلته . ثم قرأ : وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة . إن أخذه أليم شديد » .

وهذه وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل رضى الله عنه حين بعثه إلى اليمن . قال : « إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب ، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله : فإن هم أطاعوا لذلك ، فاعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك ، فإياك وكرائم أموالهم . اتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » .

* * *

هذا بيان للناس

أخي القارىء الكريم :

وهكذا طفت بك طوافاً مباركاً حول هذه الآية الجامعة ، التي ورد الأمر فيها بالعدل ، والإحسان ، وإيتاء ذي القربى ، وجاء النهي فيها عن الفحشاء ، والمنكر ، والبغي ، وكان ختامها قوله تبارك وتعالى : « يعظكم لعلكم تذكرون » .

فالوعظ من الله : إرشاد وتوجيه ، وحدود ومعالم ، لا يتعداها إلا من ظلم نفسه ، وسفه قدره ، ونسي ربه .

ولفظ « لعل » من الله تعالى : لا يفيد الترجي ، إنما يفيد التعليل والغاية ، فهو بمعنى : « لتتذكروا » ، إذ أن الترجي : هو توقع حصول الأمر المحبوب ، وتوقع حصول الشيء يفيد الجهل به ، والجهل على الله : محال .

(إن هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) .

الوفاء بالعهــود فى الإســلام
والمحافظة على الإيمان

قال الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين : (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ، أن تكون أمة هى أربى من أمة ، إنما يبلوكم الله به ، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) .

هاتان الآيتان الكريمتان ورد ذكرهما بعد الآية الجامعة لأصول الإسلام ومبادئه ، وذلك دليل قوى على مكانة العهــود فى الإسلام ، فقد أكد الله تعالى هذا الجانب بقوله : (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعهــود) ، وقوله : (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا) ، وهنا يقول : (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) .

والعهد : عبارة عن العقد المؤكد باليمين ، والله جل جلاله يريد أن يعطى العهد مكانة تليق بالوفاء به ، فيقول : (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) . فمن استشعر عظمة الله وهيمنة سلطانه ، فإنه لن يجترىء على نقض عهوده ، ولذلك جاء ختام الآية : (إن الله يعلم ما تفعلون) .

إذاً : فمادام الله هو الكفيل ، العالم بالفعل : سره وعلنه ، أوله وآخره ، صغيره وكبيره ، فكفى به كفيلا ، وكفى به عليما .

ثم تأتى الآية الثانية فتشبه ناقض العهد بعد توكيده : بإمرأة خرقاء ، ذات حماقة وسفاهة ، غزلت غزلا محكماً متقناً ، ثم نقضته نقضاً ، فذهب غزلها أدراج الرياح ، وضاع جهـــدها هباء منثوراً . . كذلك نقض العهود بعد توكيدها : يضعف الأمة ، ويودى بمكانة الفرد ، . مهما كانت الدوافـــع إلى النقض ، ولذلك سمى الله هذا الفعل : خيانة ، ودخلا ، وخديعة ، وغشاً ، فقال (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم) . وذلك من أجل أن تكون أمة أكثر عدداً من الأخرى ، فليس المدار على كثرة العدد أو العدة ، إنما المدار على الثبات والحزم والرجولة والشهامة . . قال سبحانه جل من قائل : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) ، وقال تبارك اسمه : (ليجزى الله الصادقين بصدقهم) .

وإذا كان القرآن الكريم قد شبه ناقضى العهود بالمرأة الخرقاء السفيهة ، فإن السنة الشريفة أنزلت « الغادر » يوم القيامة . . مكانة سحيقة من الذل والهوان .

قال صلوات الله وسلامه عليه : « إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال : هذه غدرة فلان ، وإن من أعظم الغدر ــ بعد الإشراك بالله ــ أن يبايع رجل رجلا على بيعة الله ورسوله ، ثم ينكث بيعته ، فلا يخلعن أحد منكم يداً ، ولا يسرفن أحد منكم فى هذا الأمر ، فيكون فصل بينى وبينه » .

وكفى بنقض العهد بشاعة : إنه يجعل صاحبه من أهل النفاق ، وكفى بالنفاق إثما أنه داء عضال، ووبال فتاك بكرامة الأمم والأفراد ، قال صلى الله عليه وسلم : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » ، وقال أيضاً فى رواية للإمام مسلم . « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم » ، وفى حديث آخر : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر . وإذا خاصم فجر » (متفق عليه) .

واستمع يا أخى إلى هذه الصورة المشرقة من الوفاء بالعهد ، والتى تمثلت على يدى الصديق رضى الله عنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فعن جابر رضى الله عنه قال : « قال لى النبى صلى الله عليه وسلم : لو قد جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا ، فلم يجىء مال البحرين حتى قبض النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما جاء مال البحرين أمر أبو بكر رضى الله عنه فنادى: من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أو دين فليأتينا ، فأتيته ، وقلت له: إن النبى صلى الله عليه وسلم قال لى كذا وكذا، فحثى لى حثية، فعـــددتها ، فإذا هى خمسمائة . فقال لى : خذ مثليها » (متفق عليه) .

* * *

إن الله تعالى أمرنا فى هذا المشهد القرآن الكريم بالوفاء بالعهد ، ونهانا عن نقض الإيمان بعد توكيدها

والأوامر والنواهي : ابتلاء واختبار . ولذا ختم الله هذه الآيــة الكريمة بقوله تبارك وتعالى : (إنما يبلوكم الله به ، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) .

وتعقيباً على الوفاء بالعهود ، والمحافظة على الأيمان نقول :

(١) النهى عن الحلف بغير الله :

لا يجوز لمسلم أن يحلف بغير الله تعالى . فقد قال صلوات الله وسلامه عليه :

« إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفاً : فليحلف بالله ، أو ليصمت » . وفي رواية في الصحيح : « فمن كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله ، أو ليسكت » .

كذلك من باب الخطأ الشائع أن يحلف الإنسان بالأمانة ، فقد روى أبو داود رضي الله عنه بإسناد صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من حلف بالأمانة فليس منا » .

ومن الآفات الشائعة أيضاً بين الناس : أن يبرأ أحدهم من الإسلام إن فعل كذا وكذا .

فما موقف هذا من الله . ومن الإسلام ؟

لقد روى أبو داود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من حلف فقال إني بريء من الإسلام : فإن كان كاذباً ، فهو كما قال ، وإن كان صادقاً ، فلن يرجع إلى الإسلام سالماً » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه سمع رجلا يقول : لا ، والكعبة ، فقال ابن عمر : لا تحلف بغير الله ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من حلف بغير الله فقد كفر . أو أشرك » (رواه الترمذى) .

(٢) الوعيد الشديد لمن حلف بالله كاذباً :

من الكبائر التى نهى الله ورسوله عنها : الحلف بالله كاذباً ، فقد أخبر الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم فقال: « اليمين الفاجرة تذر الديار بلاقع » .

وروى ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من حلف على مال امرىء مسلم بغير حقه ، لقى الله وهو عليه غضبان ، قال : ثم قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مصداقه من كتاب الله عز وجل : إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا : أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ، ولا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم » (متفق عليه) .

ثم تعال معى — يا أخا الإسلام — لتمعن النظر فى هذا الحديث النبوى الشريف الذى يبين فيه الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم مدى الخطورة المترتبة على الحلف بالله كذباً فى سبيل أن ينال عرضاً دنيوياً فانياً لا قيمة له .

قال صلوات الله وسلامه عليه : « من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه ، فقد أوجب الله له النار ، وحرم عليه الجنة ، فقال له رجل :

وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله ؟ وإن كان قضيباً من أراك » (۱) (رواه مسلم) .

وقد سمى الإسلام اليمين الكاذبة : باليمين الغموس ، لأنها تغمس صاحبها فى النار ، ولذلك نظمها فى سلك الكبائر من الذنوب قال صلوات الله وسلامه عليه : « الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس » (رواه البخارى) .

وفى رواية للبخارى أيضاً أن أعرابياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله : ما الكبائر ؟ قال : « الإشراك بالله ، قال : ثم ماذا ؟ قال : اليمين الغموس ، قلت : وما اليمين الغموس ؟ قال : الذى يقتطع مال امرىء مسلم » يعنى بيمين هو فيها كاذب .

(۳) رحمة الله بعباده :

من باب رحمة الله — التى وسعت كل شىء — أنه لم يجعل اليمين مانعاً من فعل الخير ، فإذا حلفت يميناً ألا تفعل كذا ، ثم ظهر أن الخير فى فعله ، فلا تجعل يمين الله عائقاً ومانعاً من فعل ما حلفت عليه ، بل افعل الذى هو خير ، وكفر عن يمينك ، وكفارة اليمين : هى كما بينها الله تبارك وتعالى فى قوله : (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد : فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ، واحفظوا أيمانكم) .

(۱) الأراك : شجر ، والمراد بالقضيب هنا : فرع منه .

وجاء فى الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها ، فأت الذى هو خير ، وكفر عن يمينك » (متفق عليه) .

وقال أيضاً — صلوات الله وسلامه عليه : « من حلف على يمين . فرأى غيرها خيراً منها ، فليكفر عن يمينه ، وليفعل الذى هو خير » (رواه مسلم) .

هذه أمور ثلاثة عقبنا بها على آية « الايمان والعهود » . وذلك نظراً لعموم البلوى ، وانتشار فروعها .

وكان أول هذه الأمور : النهى عن الحلف بغير الله .

وكان ثانيها : الوعيد الشديد لمن حلف بالله كاذباً .

وكان ثالثها : التكفير عن اليمين ، إذا كان الخير فى غيرها ..

* * *

والآن نعود إلى تفسير آيات من سورة « النحل » فنقول :

مشيئة ، وحكمة ، وتوجيه

يقول الله تبارك وتعالى : « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، ولتسألن عما كنتم تعملون * ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم ، فتزل قدم بعد ثبوتها ، وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ، ولكم عذاب عظيم * ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلا ،

إن ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون * ما عندكم ينفد ، وما عند الله باق ، ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

واعلم يا أخى أن مشيئة الله تعالى مبنية على علم وحكمة ، وأن من مشيئته تعالى أنه أعطى عباده الاختيار والكسب والعقل والتميز ، ووهبهم القوى التى تمكنهم من سلوك الطريقين : طريق الخير ، وطريق الشر ، فليس لإنسان مجترىء على المخالفة لأوامر الله أن يلقى باللائمة على مشيئة الله . .

قال سبحانه فى حق الإنسان : (فجعلناه سميعاً بصيراً * إنا هديناه السبيل : إما شاكراً ، وإما كفوراً) وفسر السبيل بقوله : (وهديناه النجدين) بعد ما قال : (ألم نجعل له عينين * ولساناً وشفتين) ، وفسر (النجدين) بقوله : (ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها) ، وأرشد إلى الخير وحذر من الشر ، فقال : (قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها) ، وزاد هذه القضية وضوحاً وإظهاراً وقال : (وأما ثمود فهديناهم ، فاستحبوا العمى على الهدى) .

ثم نادى بعد ذلك فى عزة وكبرياء تليق بذاته العلية فقال : (وقل الحق من ربكم : فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر) ، ثم بين مدى رحمته بعباده فقال : (إن تكفروا : فإن الله غنى عنكم ، ولا يرضى لعباده الكفر ، وإن تشكروا : يرضه لكم) .

وقد سئل الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه فقيل له : ما بال الله يريد ثم يعاقب ؟ فقال الإمام كلمة تكتب بمداد من الذهب ، قال

« الله أراد بنا ، وأراد منا ، فأخفى ما أراد بنا ، وأظهر ما أراد منا . . فاحتجنا بما أراد بنا ، وتركنا ما أراد منا » !

تلك كلمة حق نوجهها إلى « المفلسين » الذين أقدموا على المخالفات الشرعية ، تاركين أوامر الله وطرحوها وراءهم ظهريا ، ويشربون ويلعبون ، وعلى الأعراض يعتدون ، وفى الحياة يعبثون ويبعثون ، ثم بعد ذلك يلقون باللائمة على صفحة الغيب.. . !

فإذا كلمت أحدهم فى ذلك ، فلا تسمع منه إلا جدالا فى الله بغير علم ، ولا هدى ، ولا كتاب منير ! !

إن مشيئة الله صالحة لأن تجعل الناس كلهم أمة واحدة ، والإضلال والهداية إنما يكونان على حسب استعداد العبد وسلوكه ، قال سبحانه . (فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى) .

ولذا يقال لهذا « النادم » يوم القيامة : (بلى : قد جاءتك آياتى ، فكذبت بها ، واستكبرت ، وكنت من الكافرين) .

فيا أخى : قل لمن عصى ربه وقال إنه أراد بى هكذا . . قل له : اطلعت على الغيب ، أم اتخذت عند الرحمن عهداً ؟

قل له : ألم يرسل ربك إليك رسولا ، يبين لك الحلال والحرام ؟

قل له : ألم ينزل إليك كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ وفيه تبيان لكل شىء ؟

قل له : ألم يهبك الله عقلا تميز به الخبيث من الطيب ؟

ثم قل له — بعد ذلك — ألم يرفع القلم عن ثلاث : عن المجنون حتى يفيق ، وعن الصبي حتى يحتلم ، وعن النائم حتى يستيقظ ؟

قل له : ألم يتجاوز ربك — بفضله وكرمه — عن الخطأ والنسيان ، وما استكره الإنسان عليه ؟

قل له : ألم يفتح ربك الكريم باب التوبة ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ؟

قل له : ألم تسمع إلى قول إبليس اللعين لربه عز وجل : وعزتك وجلالك لأغوينهم ما دامت أرواحهم فى أبدانهم ، فقال رب العزة : وعزتى وجلالى لأغفرن لهم ما داموا يستغفرونى ؟ ! !

إذا : فقوله تعالى : « ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء » لا يفيد إجبار العبد على سلوك طريق الضلال — وذلك كما بينا فى الآيات السابقة — إنما المشيئة هنا مبنية على علم الله ، والعلم صفة انكشاف ، لا صفة التزام وجبر .

« إن الله تعالى فرض فرائض فأدوها ، ونهى عن أشياء فلا تقربوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وسكت على أشياء رحمة بكم فلا تسألوا عنها » ! !

° ° °

وبعد هذه الآية الكريمة تعود الآيات فتؤكد الوفاء بالعهد ، وتنهى عن اتخاذ الإيمان خديعة ومراوغة . . إذ أنه سيترتب على ذلك زلة

الأقدام بعد ثبوتها . هذا فى الدنيا : أما فى الآخرة فعذاب أليم ، وخزى عظيم .

ثم ينهى عن أن يشترى الإنسان بعهد الله وأيمانه ثمناً قليلا ، فيخالف بذلك ربه ، لأن ما فى الدنيا كلها لا يساوى عند الله جناح بعوضة إذا قيس بما عند الله : (إنما عند الله هو خير لكم ، إن كنتم تعلمون . ما عندكم ينفد ، وما عند الله باق) .

ألا إن كل شىء هالك إلا ما عند الله ، وما عنده لا يناله إلا الصابرون على طاعته ، المقيمون لشعائر دينه : (ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) .

المساواة بين الرجل والمرأة فى الأعمال والجزاء

ثم يقول الله تبارك وتعالى : (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) .

ما أعظم العدالة الإلهية ، وما أجل قدرها ! وما أفضل الكرم الربانى ، وما أرفع شأنه !

يا من يجيب العبد قبل سؤاله ··· ويجود للعاصين بالغفران
وإذا أتاه الطالبون لعفوه ··· ستر القبيح وجاد بالإحسان
أصبحت ضيف الله فى دار الرضا ··· وعلى الكريم كرامة الضيفان

يعفوا الملوك عن النزيل بساحهم كيف النزول بساحة الرحمن ؟
وأنا المسيء وقد دعوتك سيدى تعفو وتصفح للعبيد الجانى؟
يا من إذا وقف المسيء ببسابه ستر القبيح وجاد بالإحسان

وعد من الله — والله لا يخلف وعده — لمن عمل صالحاً ، لا فرق فى ذلك بين الذكر والأنثى .

والعمل الصالح : هو كل ما جاء موافقاً لأوامر الله ورسوله .

ولقد وعد الله هؤلاء بوعدين .

أحدهما : فى الدنيا ، والآخر يوم القيامة .

أما فى الدنيا : فحياة طيبة ، فيها سكينة ، وقناعة ، ورضا من الله ، وعن الله ، رضى الله عنهم ، ورضوا عنه .

وأما فى الآخرة : فجزاء بأحسن ما كانوا يعملون .

والإيمان : شرط أساسى ، فلا يقبل من الأعمال إلا ما كان مبنياً على الإيمان ، قال سبحانه : (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى ، وهو مؤمن).

وتظهر ثمرة الإيمان فى الرضا بالقضاء ، والشكر على الرخاء ، والصبر عند البلاء . ولا يجوز لعبد مؤمن أن يجزع لما قضى الله .

وكان داود عليه السلام يقول : « اللهم إنى أسألك أربعاً ، وأعوذ بك من أربع : أسألك لساناً ذاكراً ، وقلباً شاكراً ، وبدناً على البلاء صابراً ، وزوجة تعيننى على دينى ودنياى : وأعوذ بك من ولد يكون

على سيداً ، ومن مال يكون وبالا على ويتمتع به غيرى ، ومن جار سوء : إن رأى منى خيراً أنكره ، وإن رأى سوءاً نشره ، ومن زوجة تشيبنى قبل المشيب » ! !

فبادر يا أخى بالعمل الصالح ، لتنال الوعدين الكريمين فى الدنيا والآخرة ، وسارع بالتوبة والرجوع إلى الله تعالى . ما أجمل الصلح مع الله ! !

ألا وإن الصلح مع الله : طريق النجاة .

واستغفر الله ، تجد الله غفوراً رحيما ، وتواباً كريماً ، وعفواً حليما .

خاتمة

(نسأل الله حسن الخاتمة)

بناء النفوس رسالة صعبة ، قام بها الأنبياء ومن نهج نهجهم من الصالحين المؤمنين ، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

وقد جعلنا هذا الكتاب إرشاداً وتوجيهاً للسالكين ، الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه . .

قدمنا فيه الحديث عن قضايا تأخذ بالأيدى إلى طريق رب العالمين .

قدمنا فيه أبواباً عن الإيمان ، والإخلاص ، والنفاق ، والرياء ، والوفاء بالعهد ، والثبات على المبدأ وغير ذلك ، ثم سلكنا طريقاً قرآنياً ، ومنهجاً نبوياً فى تفسير آيات بينات جعلناها فى إطار « نظرات فى سورة

النحل » ، وذلك لما اشتملت عليه تلك السورة الكريمة من آيات دالة على توحيد الله وعظمته وكبريائه ، وقدرته وعظيم آلائه .

فبالإيمان والإخلاص والتوحيد : تبنى النفوس ، وبالبعد عن الرياء والنفاق والشرك : تشيد صروحها .

ولقد ختمنا هذا المطاف الفياض بتلك الآية الجامعة : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون) .

ثم أتبعناها بالحث على الوفاء بالعهود والمحافظة على الإيمان ، وحذرنا من اليمين الكاذبة ، والحلف بغير الله ، وبينا مدى الخطورة المترتبة على المخالفة فى ذلك ، مستأنسين بقول الله تبارك وتعالى : (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا . إن الله يعلم ما تفعلون) إلى آخر هذه الآيات الكريمة ، التى ترشد الإنسان إلى ما فيه الخير والنفع له فى الدنيا والآخرة .

ألا وإن أول لبنة فى بناء النفوس : هى التوبة النصوح ، والرجوع إلى الله تبارك وتعالى ، والخشية منه فى السر والعلانية ، فهو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

أمل ورجـــاء

لذلك : فإن أملنا فى الله كبير أن يوفق كل قارىء لهذا الكتاب أن يقف على باب الله مردداً قوله تبارك وتعالى : (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً ، عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ، ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، يوم لا يخزى الله النبي والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا ، إنك على كل شيء قدير) .

ه ه ه

فاللهم اعط نفوسنا تقواها . . وزكها . . أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين واحشرنا فى زمرتهم يارب العالمين . . آمين .

فهرس الكتاب

رقم الايداع ٣٧٥٢ / ٧٩
الترقيم الدولى ٩ – ٩١ – ٧٠٤٩ ISBN

مطابع المكتب المصرى الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ عبد الحميد كشك الداعية الإسلامى قدم إلى مريديه ومحبيه فى العالم الإسلامى العديد من الأحاديث المسجلة التى تحمل الدعوة الإسلامية الخالصة الصادقة الجريئة . .

والعصر الذى نعيشه والأجيال الصاعدة التى تمزقها الحيرة بين الخطأ والصواب يدعونا إلى أن نعيش الدعوة الإسلامية تاريخها وحقائقها بقدر ما نعيش واقعها ومسيرتها .

وإسهاماً فى ملء فراغ يشعر به الجميع فى هذا المجال نقدم مكتبة الشيخ عبد الحميد كشك فى :

١ — طريق النجاة
٢ — البطولة فى ظل العقيدة
٣ — رياض الجنة
٤ — نفحات من الدراسات الإسلامية
٥ — بناء النفوس
٦ — أصحاب النفوس المطمئنة
٧ — حياة الإنسان
٨ — مع التوحيد والأخلاق
٩ — اليوم الحق
١٠ — صور من عظمة الإسلام
١١ — ارشاد العباد
١٢ — أضواء من الشريعة الإسلامية
١٣ — البعث والجزاء
١٤ — شفاء القلوب
١٥ — حقائق وحديث
١٦ — حديث من القلب
١٧ — ورثة الفردوس
١٨ — الإسلام وأصول
١٩ — الوصايا العشر فى



(الثمن ٢٥ قرشاً)